مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الليالي القرائية أو الجاحظ قارئًا

جعفر لعزيز
باحث مغربي

2025

www.mominoun.com

بحث محكم
قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية
2025-03-13

جميع الحقوق محفوظة © 2025

الليالي القرائية أو الجاحظ قارئًا

إضاءة:

إن الليل سرّ من أسرار القراءة، الذي يسمح للقارئ العميق بالنفاذ إلى احتمالات النص ومبثوثاته الصامتة، الليل عبورٌ إلى باطن النص المؤول، والإسهام في توالدات معان متعدّدة، الليل نقيض الوضوح، ولكن في هذا الليل يتجلى الوضوح أكثر، وقد تماثل ذلك فيما قضيته من الليالي القرائية مع صاحبي الجاحظ. وبهذا، فالليل لدى القارئ أضوأ من النّهار؛ لأنه الأنفذ إلى عمق الفكر والقلب، يقول بلقاسم: «يتحدّد الليل، في الفعل القرائي، بوصفه نقيضًا للوضوح واليقين والثبات والبداهة، في هذا الليل أيضا، تترسّخ لعبة القراءة بما هي انتسابٌ إلى التلوّن والارتياب والاحتمال والتجدّد، وبما هي انخراط كذلك في إنتاج هذه الخصائص وتأمين دوامها»[1].

الليل مسعف على انخراط الفعل القرائي في فهم المجهول في النص، وتبديد الغرابة وإعادة تركيبها، به تنفتح لعبة القراءة على التلوّن والالتباس والاحتمال والتجدّد، «فليل القراءة فعل معرفيّ متشابك مع الدمغة الذاتية للقارئ، ولا يستقيمُ هذا الفعل إلا بنهوضه على ذاكرة خَبرتْ أنّ حقيقة المعنى راسخة في الانفلات والتأجيل والتلوّن الدائم»[2].

رأى بلقاسم أنّ الليل وجهٌ حقيقيّ للقراءة، يتجلّى في كونه الموَجّه إلى المسالك التأويليّة للالتقاء بباطن النص وتَكشّفِ «حقيقته»، الليل والقراءة يتداخلان ويتلازمان لكشْف ما أضمره الجاحظ واستضمره للقرّاء والكتّاب، وهما أيضا مسعفان للانفتاح على مسارات اللانهائيّ. الليل هو الوجهُ الحقيقي للمعنى والقراءة، وجهٌ منذورٌ للانتساب إلى الغياب، لا بوَصف الغياب معطى مستترًا يمكنُ الإلمام به وحصره، بل بوصفه مسالك ليلية. إنها مسالك اللانهائي، الذي يجعل هذا الغياب رهين التأويل ورهين القراءة»[3].

الكتاب الذي يتحدّد فيه المعنى في ضوء الليل، مؤلّفٌ لا متناه كما أسماه لويس خورخي بورخيس[4]، فيه يختبئ المجهول والغريب، وفيه يسكنُ الغياب. النفاذ إلى ظلماته مُهدِّدٌ بالموت، لكنّ هذا النفاذ لا يَستقيمُ وإن خصَّهُ القارئُ بكامل عمره. لذلك، يقول كيليطو: «ليطمئن القارئ: إنه لن يموت بسبب الليالي، لكونه لن يتمكن حتى وإن رغب في ذلك، من إتمام هذا الكتاب المتشظي»[5]. بناءً على ذلك، فالكتاب الخليقُ بفعلَي القراءة والكتابة هو الكتاب الذي لا يقدر القارئ على إتمامه. ليس المقصود بإتمامه، هنا، الانهاء وتتمّة القراءة، وإنما القدرة على استنفاد المعاني الثاوية فيه، وسبر أغواره وأسراره. وهكذا حدثني صاحبي، وأخبرتني به لياليه

---

1 مرايا القراءة، ص143

2 نفسه، ص ص: 142- 143

3 نفسه، ص143

4 لويس خورخي بورخيس، كتاب الرمل: قصص، ترجمة سعيد غانمي، دار أزمنة للنشر، ط2/1999م، ص85

5 مرايا القراءة، ص246

القرائية[6]. فالليالي الجاحظية، ليالٍ نقدية وإبداعية، اقتربنا فيها من الفعل القرائي والتأويلي لدى الجاحظ، وتم التحقق من صورة المرأة في متنه كموضوعة ختمت بها الليالي السبع.

قد يجد قارئ الدراسة في نفسه الكثير من الدهشة والغرابة من الموضوع، المعنون بـ «الليالي القرائية» أو «الجاحظ قارئا»؛ فالأول مرتبط بالوقت والزمن الذي خصصته لقراءة ومطالعة أبواب كثيرة في مصنف الحيوان للجاحظ، وقت الليل، حيث الهدوء والصمت ضروريان لسماع ما تهمس به النصوص الجاحظية الحبلى بكثير من المعاني والدلالات، والعنوان الثاني، له صلة بما تبدى لي من المصاحبة المتأنية لنصوص يضمر فيها صاحبها أكثر مما يظهره، والتي أفترض فيها أنّ الجاحظ له وعي تام بالقراءة والقارئ وعوالمهما، ومن ثمة تضيءُ هذه الدراسة مسألة كون صاحب الحيوان قارئًا عميقًا تمثلت في منجزه تجلياتُ القراءةِ العميقةِ في منحاها المعقد، والممتدةِ في منحاها المنتسب إلى اللانهائي، الذي تجلّيه عبارة: «القراءة نهر كبير» لخالد بلقاسم، هي نهر كبير، لا نستطيع كشف أسراره ومعرفة مدى عمقه من أول وهلة، بخلاف البحر، الذي نعلم عنه، أنه أشد عمقا وأكثر ظلمةً، إلا أن النهر يصعب معرفة عمقه، ومعرفة صفاته، ونشبهه بالمثل القائل: يوجد في النهر ما لا يوجد في البحر، ومن ثمة، فبما أن النهر يشق علينا معرفة عمقه، ويوجد فيه ما لا يوجد في البحر، فإن القراءة عصية عن الحدّ والتّعريف، وفي كتاب الحيوان نجد وعيا تاما لدى الجاحظ بمفهوم القراءة، بوصفها مرحا قرائيًّا ولعبا خلاّقا، يتم من خلالها مصاحبة النصوص الفريدة.

تبتغي الليالي القرائية الاقتراب من الجاحظ القارئ، بوصفه أكثر الْكُتابِ القدماء معرفة بالقُرّاءِ، ومخاطبة لهم، وعالما بما يجول في ضمائرهم، فلا كاتب أفضل معرفة بمكر وعداوة القارئ من الجاحظ، ويتحقق الأمر كثيرا في أدب الرسائل التي يكثر فيها من المخاطبة، وهذه المسألة تتبدى واضحة في منجز الحيوان أيضا. ستقربنا كل ليلة من مظاهر ملاطفة واستلطاف الجاحظ للقارئ، ومن موضوعات استلطافه، وأصناف القراء وأنواعهم، ومظاهر عداوة القراء، مع الحديث عن مدى شغف الكاتب بكتبه، واعتبارها أشدّ قرابة من أبنائه. إنّ الجاحظ قارئ عميق، تجلت فيه معالم القراءة، واجتذب بعضا من أسرارها اللانهائية، وكشف جزءاً من خيوطها الممتدة، بفعل وعيه التام بنهر القراءة وعالم القراء، ومعرفته العميقة بسرّ الكتابة اللامتناهية المعاني والدلالات.

---

6 قال الجاحظ عن تأليف كتاب الحيوان: ««الحيوان» (4/ 361): «وأنا أعوذ بالله أن أغرّ من نفسي، عند غيبة خصمي، وتصفح العلماء لكلامي، فإني أعلم أن فتنة اللسان والقلم، أشدّ من فتنة النساء، والحرص على المال. وقد صادف هذا الكتاب مني حالات تمنع من بلوغ الإرادة فيه، أوّل ذلك العلة الشديدة، والثانية قلة الأعوان، والثالثة طول الكتاب، والرابعة أني لو تكلفت كتابا في طوله، وعدد ألفاظه ومعانيه، ثمّ كان من كتب العرض والجوهر، والطّفرة، والتولد، والمداخلة، والغرائز، والتماس- لكان أسهل وأقصر أياما، وأسرع فراغا؛ لأني كنت لا أفزع فيه إلى تلقّط الأشعار، وتتبّع الأمثال، واستخراج الآي من القرآن، والحجج من الرّواية، مع تفرّق هذه الأمور في الكتب، وتباعد ما بين الأشكال. فإن وجدت فيه خللا من اضطراب لفظ، ومن سوء تأليف، أو من تقطيع نظام، ومن وقوع الشيء في غير موضعه- فلا تنكر، بعد أن صوّرت عندك حالي التي ابتدأت عليها كتابي. ولولا ما أرجو من عون الله على إتمامه؛ إذ كنت لم ألتمس به إلا إفهامك مواقع الحجج لله، وتصاريف تدبيره، والذي أودع أصناف خلقه من أصناف حكمته- لما تعرّضت لهذا المكروه. فإن نظرت في هذا الكتاب فانظر فيه نظر من يلتمس لصاحبه المخارج، ولا يذهب مذهب التعنّت، ومذهب من إذا رأى خيرا كتمه، وإذا رأى شرّا أذاعه. وليعلم من فعل ذلك أنه قد تعرّض لباب إن أخذ بمثله، وتعرّض له في قوله وكتبه، أن ليس ذلك إلا من سبيل العقوبة، والأخذ منه بالظلامة. فلينظر فيه على مثال ما أدّب الله به، وعرّف كيف يكون النظر والتفكير والاعتبار والتعليم؛ فإنّ الله عزّ وجلّ يقول: وَإِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ وَرَفَعْنا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا ما فِيهِ»

الليلة الأولى: تلطيف القارئ واستمالته

وعى الجاحظ وعيا تاما بضرورة تلطيف القارئ واستمالته، وجعله الأساس الموجه لطريقة الكتابة، وما لم يكن الكاتب ممالحا ومظارفا ومضاحكا للقارئ، شق عليه النجاة من حربه الضارية المستمرة، فإن الكاتب ملزم أن يهتم بالقارئ وأن يظفر به، وأن ينتصر عليه، وأن يحذر من شدته وأن يخاف من قلقه أو غضبه، وأن يبحث عن حلول للحد من مله، هذا ما يظهر كثيرا في كتب الجاحظ، وغيرها من الكتب القديمة، فقد كانوا واعين بأهمية التسلية والتلطيف في الكتابة، من أجل تهدئة نار القراء المصطلية دائما، والمشتعلة كلما أعلنوا حربا ضد كاتب ما، لعدم اهتمامه بهم.

فليعد قارئ كتابي هذا إلى بعض الكتب التراثية، ليجد حضور ضمير القارئ بقوة، إنهم يلاطفونه بقولهم، ألطفك الله، ويعزونه، بترديدهم أعزك الله، ويطلبون له البقاء **بقولهم**، أبقاك الله، ويحسنون الظن به، بكتابتهم، ونظنك فهمت مقصودنا، وتتبعت مكتوبنا، وعلقت على شيء لم ينل من خاطرك، وتنفرت من كلمات لم تستمل عقلك، ونحسن بك الظن على تتميم وتكميل كتابنا، رغم طوله وكثرة مطالبه. هذا ما ستجده إذا ما عدت إلى النفائس التراثية سردا وتنظيرا، وأحسن بك الظن أنك عائد إليها، وفي نيتي أن أعيّن لك هذه الكتب بالأسماء حتى يتيسر لك إيجاد ما قلته، ولكن ذلك تنقيص من قيمتك.

يهمنا الجاحظ في هذا المسار، لنحدد لك وعيه التام بضرورة تلطيف القارئ، هنا ننقل نصا، يقول فيه: «فمتى وجدنا من ذلك بابا يحتمل أن يوشّح بالأشعار الظريفة البليغة. والأخبار الطريفة العجيبة، تكلّفنا ذلك، ورأيناه أجمع لما ينتفع به القارئ. وأنا كاتب لك بعد هذا؛ إذ كنت قد أمللتك بالتطويل، وحملتك على أصعب المراكب، وأوعر الطّرق، إذ قد ذكرنا فيه جملة صالحة من كلام المتكلمين، ولا أرى أن أزيد في سآمتك، وأحمّلك استفراغ طاقتك، بأن أبتدئ القول في الإبل، والبقر، والغنم، والأسد، والذئاب، والحمير، والظباء، وأشباه ذلك، مما أنا كاتبه لك. ولكني أبدأ بصغار الأبواب وقصارها، ومحقّراتها، وملاحها، لئلا تخرج من الباب الأول، إلا وأنت نشيط للباب الثاني، وكذلك الثالث والرابع إلى آخر ما أنا كاتبه لك، إن شاء الله.»[7].

ينبه الجاحظ قارئه، بالموضوعات التي سيتحدث عنها في الحيوان، ويخبره بطول أبوابها، وكثرة مطالبها، وصعوبة مراكبها، ووعورة طرقها، ويبرز له سبب الاستطالة وعلة تكّلفه في إيراد الأشعار والأخبار، وما شابه ذلك من كلام العرب، إنما غايته انتفاع القارئ، كما أنه أخذ أيضا ودَّ القارئ واعتذر منه، وحتى يجعله متجاوزا لشدة طول الكتاب، فقد أبدى له رأيا يستطيبه ويمالحه، بأنه سيبدأ بصغار الأبواب وقصارها، ولسنا نعرف شيئا اسمه التقصير لدى الجاحظ، إنما الغرض الأساس هو الاستطابة والاستمالة والتلطيف، غاية جعل القارئ نشيطا ومستريحا في قراءة الكتاب.

---

7 الحيوان، ج5، ص85

يصرح الجاحظ تصريحا واضحا، بغرضه الأساس من استمالة القارئ، واكتساب عطفه، وجذب مشاعره من أجل تتمة الكتاب من جهة، والسيطرة عليه، والظفر به من جهة أخرى، يقول الجاحظ: «وسنذكر قبل ذكرنا لهذا الباب أبوابا من الشعر طريفة، تصلح للمذاكرة، وتبعث على النشاط معه وتستخفّ معه قراءة ما طال من الكتب الطوال. ولولا سوء ظني بمن يظهر التماس العلم في هذا الزمان، ويذكر اصطناع الكتب في هذا الدهر- لما احتجت في مداراتهم واستمالتهم، وترقيق نفوسهم وتشجيع قلوبهم، مع كثرة فوائد هذا الكتاب- إلى هذه الرياضة الطويلة، وإلى كثرة هذا الاعتذار، حتى كأنّ الذي أفيده إياهم أستفيده منهم، وحتى كأنّ رغبتي في صلاحهم، رغبة من يرغب في دنياهم، ويتضرّع إلى ما حوته أيديهم. هذا. ولم أذكر لك من الأبواب الطوال شيئا، (...) فإن مللت الكتاب واستثقلت القراءة، فأنت حينئذ أعذر، ولحظّ نفسك أبخس. وما عندي لك من الحيلة إلا أن أصوّره لك في أحسن صورة، وأقلّبك منه في الفنون المختلفة، فأجعلك لا تخرج من الاحتجاج بالقرآن الحكيم إلا إلى الحديث المأثور، ولا تخرج من الحديث إلا إلى الشّعر الصحيح، ولا تخرج من الشّعر الصحيح الظريف إلا إلى المثل السائر الواقع، ولا تخرج من المثل السائر الواقع إلا إلى القول في طرف الفلسفة، والغرائب التي صحّحتها التجربة، وأبرزها الامتحان، وكشف قناعها البرهان، والأعاجيب التي للنفوس بها كلف شديد وللعقول الصحيحة إليها النزاع القويّ. ولذلك كتبته لك، وسقته إليك، واحتسبت الأجر فيك»[8].

أظهر الجاحظ سبب استمالته للقراء ومداراتهم، وسهره على جعلهم أوفياء للقراءة، فقد بخسّ قيمة التأليف في عصره أولا، وبين أن طريقة كتابتهم هشة ثانيا، بكونها تجعل القارئين يتنفرون من القراءة، ويبتعدون عنها، فبين أن مصطنعي الكتب أغفلوا جانب التنويع والتغيير، والمطارفة والملاطفة، فأنفروا الناس من شيء يسمى القراءة، لسوء اصطناعهم. ويحذرهم من ضياع فوائد كتابه الكثيرة، ويمرنهم على تجاوز شدة طول الكتاب، ترقيقا لنفوسهم، وتشجيعا لقلوبهم، والإكثار من الاعتذار، ومما يلجأ إليه الجاحظ أيضا، أنه يخاطب نفسية القارئ، ويتحدث معها؛ إذ يستشعر مللها ومقتها للكتاب، فيبحث عن مطلب آخر وحيلة أخرى يريض بها قارئه، لبعث نفس جديدة في دواخله، ويستلطفه، بنقله من مجال إلى مجال، ومن موضوع إلى موضوع، فمتى لم يجد القارئ ذاته في الأشعار، نفّس عنه الجاحظ كربته بالأخبار الظريفة، والطرف المليحة، ومتى شدّه الملل من كلام العرب، نقله الجاحظ لسحر القرآن وبيانه وبلاغته، وجمال الحديث النبوي وجوامع كلمه، ويجعله ينتقل من دائرة الغرائب والعجائب اللغوية، إلى المسائل الفلسفية، فينتفع مما يريده ويرتاح فيه، ويريح به ضميره، ويغني به معارفه، ولم يسئ صاحب الحيوان الظن بقرّائه، إنما نحا منحاهم واتجه معهم مع ما تبتغيه خواطرهم، وما لم يكن الكاتب واعيا برغبة القارئ في التنويع، سرعان ما ينفر منه، ويتركه، لكون أسلوب كتابه لا يرتد ولا يمتد ولا يتجدد، فكما أمسى أسلوبه جيدا عند البداية، فقد يصير ويمسي منفورا منه عندما يألفه القارئ، ولذلك يحتاج الكاتب إلى التنويع والتغيير، حتى يبهر قارئه، كلما ظن به أنه سيتحدث عن موضوع واحد لا غير.

---

8 الحيوان، ج5، ص86

الليلة الثانية: موضوعات استظراف القارئ واستنشاطه

مما يبرز وعي الجاحظ بمشقة القارئ، وصعوبته، أنه يذكر أسباب استظرافه، أو بالأحرى سببي استظرافه، ويذكر أيضا الموضوعات التي يستظرف فيها القارئ، وأجملها في نص صريح في حيوانه بقوله: «وإن كنّا قد أمللناك بالجدّ وبالاحتجاجات الصحيحة والمروّجة؛ لتكثّر الخواطر، وتشحذ العقول- فإنّا سننشّطك ببعض البطالات، وبذكر العلل الظّريفة، والاحتجاجات الغريبة؛ فربّ شعر يبلغ بفرط غباوة صاحبه من السرور والضحك والاستطراف، ما لا يبلغه حشد أحرّ النوادر، وأجمع المعاني. وأنا أستظرف أمرين استظرافا شديدًا: أحدهما استماع حديث الأعراب. والأمر الآخر احتجاج متنازعين في الكلام، وهما لا يحسنان منه شيئا؛ فإنّهما يثيران من غريب الطّيب ما يضحك كلّ ثكلان وإن تشدّد، وكلّ غضبان وإن أحرقه لهيب الغضب. ولو أنّ ذلك لا يحلّ لكان في باب اللهو والضّحك والسّرور والبطالة والتشاغل، ما يجوز في كلّ فنّ»[9].

يستظرف الجاحظ القراء في أمرين، في حديث الأعراب، بوصفه حاملا لآليات تشعر القارئ بالمرح القرائي، أو اللذة القرائية، وتمكنه من التعلق بالقراءة، وتخفف من ألم ما سيقبل عليه في حرب لامتناهية، أو ورطة لا خارج لها بتعبير بلقاسم، إن الجاحظ بإيراده لأخبار الأعراب يمهد ليلقي قارئه في نار لن تخمد أبدا، يواجه حرّها الوديق، وأورها الشديد، استماع حديث الأعراب من الميسرات التي تسهل طريق دخول القارئ إلى متاهات القراءة المعتمة، التي يحمل مشعل إضاءتها قارئ يخشى حربا تتضارب فيها أشياء بمنزلة أخشب لا تتحرك. إنه يقف أمام حرب ضارية مؤلمة، الانتصار فيها، معناه الظفر بمكان في جنة القرّاء، إنك تواجه مع الجاحظ الملل، وتتصارع مع الاستطالة والاستطراد، وتتبادل أطراف الحديث مع كثرة الموضوعات، ومن ثمة، إن الجاحظ مؤمن بشدة وفظاعة هذا الأمر على قرّائه، فقرر أن يبسطهم وأن يمالحهم بذكر حديث الأعراب.

وحقيق بك أيها القارئ العميق، أنك مدركٌ لشدة القراءة ومصاعبها، ومتفهم لاعتذارات الجاحظ الكثيرة ترددا في كتبه وفي كتاب الحيوان، يعلم أنك شديد الملل وقليل الصبر، وسريع التعب، وكثير النوم، وصاحب المشاغل والشواغل، وكثير التفكير، فكلما أحسست بكل هذا وغيره، حدّثك الجاحظ بكلمة لطيفة، وأضحكك بطرفة بليغة، وأفكهك بعجائب الحيوانات، ومكائد النساء، وغرائب الرجال، ودعا لك بدعوة قد تكون مستجابة، ويتحسس أمرك بعد اتمام باب وافتتاح مطلب جديد، تدرك من هذا، أن الجاحظ لم يمت، ولن يموت، فهو حي، وسيبقى حيا؛ لأنه يأتي إليك ضيفا وزائرا وصاحبا وخليلا، الجاحظ أيها القارئ يحيا متى أزعمت على قراءته، وشدّتك الحماسة إلى اكتشافه، فاقرأ الجاحظ لتراه متمثلا أمامك.

والأمر الثاني الذي يستظرف فيه الجاحظ، هو تنازع شخصين في موضوع لا يحسنان فيه شيئا، فيرد غلطهما وجهلهما وغباءهما، بغية إلطاف القارئ، وجعله قادرا على تجاوز محنة القراءة وشدتها، إحساس القارئ بالملل أمر يعلمه الجاحظ، فأراد أن يضع له حدا، بتوجهه إلى الاستظراف، حتى يمنح للقارئ فسحة أمل، لا تجعله

9 الحيوان، ج3، ص3

يعدّ عدد الصفحات المتبقية، أو يمر مر السحاب على أسطر الكتاب، ناويا بذلك التخلص من عبء لم يقدر على تحمله بسبب الحرب الضارية التي يخوضها مع حرّاس القراءة، الذين يمنحون بطاقة العبور إلى الجنة بتجاوزهم. السببان اللذان يستظرف فيهما الجاحظ يقودان القارئ حتما إلى الانتصار على الوجه الشاحب في القراءة، وأخذ إجازة للاستمتاع بقبساتها المضيئة اللامتناهية.

قد تدرك أيها القارئ اللطيف العزيز أنّ الجاحظ يعيش بيننا وبينك، لأنك قد تطرح سؤالا؟ تقول فيه: كيف علم بكل هذا؟ هل حقا يعيش بيننا؟ إنه كاتب دائم، مشدود أمره إلى الديمومة، قد أدرك أننا شديدو الإعراض عن القراءة، وأننا في عصر الرقمنة، وأكثر وقتنا يدوم معها، ولا نحب الكتب الطويلة المملة، فسرعان ما نفر منها، ونسخط على كاتبها، ونعده في خانة الكتاب الميتين، أو في مكان الذين ماتت كتاباتهم وظفر بهم القراء، ففشلوا فشلا ذريعا؛ لأنه كما سيأتي معك الآن في النقطة الثالثة أن القارئ عدوٌّ بعبارة الجاحظ، وماكر بتعبير طه حسين، عدو؛ لأنه يجعل الكاتب يعيش رعبا شديدا أثناء الكتابة، وماكر؛ لأنه يمكر بالكاتب بعد إصدار عمله بالنقد.

الليلة الثالثة: الوعي بعداوة القارئ وضرورة الظفر به

العجيب في هذه المسألة هو مزج الجاحظ بين أمرين متناقضين، أمر الاعتناء بالقارئ، وملاطفته، وأمر وصفه بالعدو. أمران متنافيان متناقضان، لا يصح الجمع بينهما، كيف يتم مصادقة النّاس وإكساب ثقتهم ثم يتم وصفهم بالأعداء؟ ومن ثمة، فالغريب أن تنعت القارئ بالعدو، ومن الصعب نعته بذلك؛ لكنَّ الجاحظ أدرى بمكر القرّاء، وأعلم بمشاغبهم، فكان أدق وصفا في تعبيره، لما لازم صفة العداوة بالقارئ؛ لأنه شخص يشعر الكاتب بالرهبة أثناء الكتابة، ويحسسه بالضجر؛ حتى يستطيع أن يظفر به، وأن ينتصر عليه؛ لأنه ما لم يفلح في ذلك يسقط في ورطة النسيان، ثم الانتهاء فالتلاشي، ثم الموت، وهاهنا تتلازم مجموعة من الأفكار وتتناسل فيما بينها، فالكاتب أثناء الكتابة، يعيش حربا مؤلمة، وهي أنه يضمر عداوة القارئ ومكره في نفسه، فيكون ملزما بالبحث عن سبل تجنب تشغبه، والانتصار عليه، ومن ثمة، فنسيان الكاتبِ القارئَ أثناء الكتابة موكول أمره إلى الانتهاء، والسرعة في الكتابة مولدة للموت في ذهنية القارئ، والبطء في الكتابة يولد الاستمرارية والدوام.

أظهر الجاحظ وعيه بمكائد القراء في قوله: «وينبغي لمن كتب كتابا ألا يكتبه إلّا على أنّ النّاس كلّهم له أعداء، وكلّهم عالم بالأمور، وكلّهم متفرّغ له، ثم لا يرضى بذلك حتى يدع كتابه غفلا، ولا يرضى بالرأي الفطير، فإنّ لابتداء الكتاب فتنة وعجبا، فإذا سكنت الطبيعة وهدأت الحركة، وتراجعت الأخلاط، وعادت النفس وافرة، أعاد النّظر فيه، فيتوقّف عند فصوله توقّف من يكون وزن طمعه في السلامة أنقص من وزن خوفه من العيب، ويتفهّم معنى قول الشاعر: [من البسيط]

إنّ الحديث تغرّ القوم خلوته ... حتّى يلجّ بهم عيّ وإكثار»[10].

القارئ -كما جاء في النّص- عدو يُشْعِرُ الكاتبَ بالاكتئاب، ويُحدِثُ له قلقا في الدماغ، ويفزعه أثناء الكتابة، لعودته الدؤوبة، بغية تصحيح وتنقيح مسوّدته، والمسوّدة على حد تعبير لويس خورخي بورخيس تنتسب إلى لا نهائية الكتابة، ولا كاتب يقرّ بانتهاء عمله، ومتى كتبه دون احتساب، ودون مبالاة، أعلن انتهاءه بيده، لكون القارئ سيتنفر منه لعدم الاهتمام بمكر القرّاء، مما يجعله يموت كتابيا. والمقصود به أنَّ الموت الذي يشتدّ على الكاتب هو موت كتاباته وتلاشيها وفناؤها، والموت هاهنا راجع لسببين: أوّلهما غياب قارئ عميق يجعلها حيَّة ومتواردة، ومن ثمَّة فموتها إعلان لهزيمة وموت صاحبها في آنٍ؛ كون النصوص تحتاج إلى قراءات عميقة نفَّاذة إلى أعماق معانيها المضمرة فيها، وتوليد ما لا حصر له من الاحتمالات والتطلُّع إلى إظهار بواطنها، والسّبب الثاني راجع بالأساس إلى الكاتب، في عدم قدرته على إشراك القارئ في كتاباته، وعجزه عن الظّفر به وعليه، استمالةً وامتاعًا واقناعًا، باعتباره العدو الأوّل والأخير له، ومتى لم يستطع الكاتب احتواء القارئ والانتصار عليه، والظفر به، يتمّ إعلان موته الكتابي قبل موته البيولوجي.

إنَّ هناك موتين للكاتب، الموت الكتابي والموت البيولوجي، وإن شئنا بنوع من الطرافة واللطافة، نقول: موت أدبي وموت علمي، فسكرات الموت الأدبي أشدّ قسوة من سكرات الموت البيولوجي، إنَّ الكاتب يخشى الاستسلام والانهزام أمام القارئ. فالعبث بالقارئ كمن يعبث بشهريار، والكاتب العابث بشهريار مآله كمآل من قتلهن قبل أن يدركهن الصباح المباح، والكاتب الذي يظفر بالقارئ، شبيه بشهرزاد، التي أدركت صباحات مباحات تجاوزت ألف ليلة وليلة، فنجت من كيد شهريار القارئ. وفي هذا المنحى، قال عبد الفتاح كيليطو في: "الأدب والارتياب": "إذا سلَّمنا بأن القارئ عدو، فالنتيجة الحتميَّة أنَّ كل كاتب في وضعيَّة شهرزاد، وكل قارئ في وضعيَّة شهريار"[11].

ننصت إلى النص ونتمعَّن فيه النظر، لنؤكِّد به فكرةَ مُفتتحِ الحديث عن العداوة المصاحبة للكاتب، في أنَّ القارئ عدوّ مرعب للكاتب، وعدم حضوره في كتاباته موت حتمي له ولا رِجعةَ فيه، والجميل في النص هو مقاربة فكرة القارئ عدوًّا بقصَّة شهرزاد بوصفها كاتبا، وشهريار بوصفه قارئا، فالمشترك واحد، إمَّا الاستهواء والانتصار أو الموت، يموت الكاتب إذا لم يَسْتَمِلْ قارئه، وستموت شهرزاد إذا لم تستطع استمالة واستهواء شهريار، وجُعِلت طريقة الحكي هنا، سبيلا مُنقذا ومُنجيا لشهرزاد من نهاية حتميَّة، وهي الموت السردي المؤدِّي إلى موت بيولوجي.

نجت شهرزاد وانتصرت على شهريار بفعل تقنية المرح والتشويق والعمق المتعمّدة في استهوائها الحكائي، وكَذلكم الكاتب ينبغي أن يعرف كيف يتعامل مع القارئ، ليتمكَّن من هزمه والظفر عليه، باعتماد آليات

10 الحيوان، ج1، ص60

11 الأدب والارتياب، عبد الفتاح كيليطو، **ص10**

كتابيَّة تستهويه، وتجعله يشعر بالمرح أثناء القراءة، وستظلّ ثنائيَّة العداوة بين شهريار القارئ وشهرزاد الكاتب مستمرَّة إلى الأبد، متجاوزة ألفَ ليلةٍ وما يزيد، ففي كل عمليَّة كتابيَّة يخوضها الكاتب يحضر القارئ كعدوّ له، يوسوس له ويهدّده ويحذّره ويؤزم حالته، ويشعره بالاكتئاب، إنه الشيطان[12] الذي لا تحقّ عليه الصداقة، ولا تصدق معه، ويستحيل الحديث عن الصداقة بين القارئ والكاتب، وأَسُوقُ هاهنا آية قرآنيَّة ينبغي إمعان النظر فيها، وهي وقوله: "إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتخِذُوهُ عَدُوًّا"، سورة فاطر الآية 6.

وإن كنا سنخرج عن سياق الآية في حديثها عن الشيطان كشيطان، بأن الله تعالى يحذِّرنا من مكره، وينبغي أن نُقِرَّ بالفكرة وأن نؤمن بها، فهو عَدُوّ لا يطاق، يتبرَّأ من الكفَّار والمشركين والمسلمين خوفا من رب العالمين، ولكن لا مانع من جعل الآية مساقا ندلِّل به مسألةَ تحذير الكُتّاب من شدّة القُرّاء وبغضائهم، وفي كونهم من أوائل الأعداء الذين يعترضون كتاباتهم، ويتعرَّضون لأخطائهم، ويُنَقشُونَ بمنقش الأظافر عن زلَّة من زلاَّتهم، وعن أساس يتخلَّصون فيه منهم.

أيَّها الكُتّاب إنَّ القُرّاء لكم أعداء فاتَّخذوهم أعداء، ولا تَعقدوا معهم وثاق مودَّة وصداقة، فتكونوا من الخاسرين والمنهزمين والضائعين، بل والميتين، فسرعان ما سَتُنْسَون وتتلاشون في ذاكرة نسيانهم الحادّة، والنسيان فضيحة فظيعة قد تعترض الكاتب، فهي ثقب كبير لا مُضَمد له إلا عَقْدُ عزمٍ على هزم القارئ، باستهوائه وجعله مرحا أثناء القراءة. وثاقة الصداقة ممنوعة في الكتابة، يستحسن الحذر الشديد، حتى يتجنَّب الكاتب الموت الكتابي قبل موته البيولوجي، فالأوَّل سكراته أشدّ قساوة من الثاني، يقول كيليطو في "الأدب والارتياب": "وينبغي لمن كتب كتابا أن لا يكتبه إلا على أن الناس كلهم له أعداء، وويل لمن ينسى هذه القاعدة ولا يكون دوما في حالة استنفار قصوى"[13].

مسألة اعتبار الله الشيطان عدوا للجميع، مشابهة أو مرتبطة أساسا بقضيَّة اعتبار الكاتب جميعَ الناسِ (القُرّاء) أعداء له؛ لأن عدم الانتصار عليهم يؤدِّي إلى مصير واحد، هو الانتهاء. فعقد الوثاق مع الشيطان مآله جهنَّم وبئس المآل والمصير، وثقة الكاتب بالقارئ وعدم أخذ الحذر منه يقوده إلى الموت والانهزام، وخاصَّة ما لم يقدر على استمالته.

القارئ عدو حقيقي للكاتب، عدو مرعب ومفزع يمارس سلطة شديدة وخفيَّة، والكُتّاب الذين لم يأمنوا شرّ القارئ سرعان ما أُعلن موتهم وانهزامهم، والذين أمنوا شرَّه واهتمُّوا به، استمرَّت كتاباتهم خالدةً ومتواردةً ومتجدِّدةً، يؤوب إليها القارئ كلّما أحسّ بنقص، أو وجد مشتركا يضمّد جرحه ويكمل نقصه، هي كتابات لا تنفد ولا تبلى، تَنَبّهَ فيها كاتبها إلى القوَّة التي يمتاز بها القارئ والحظوة التي ينبغي أن يحظى بها. ولربما

12 قال الجاحظ في الشيطان: أحدهما أن يقولوا: «لهو أقبح من الشيطان»، والوجه الآخر أن يسمّى الجميل شيطانا، على جهة التطيّر له، كما تسمّى الفرس الكريمة شوهاء، والمرأة الجميلة صمّاء، وقرناء، وخنساء، وجرباء وأشباه ذلك، على جهة التطيّر له. ففي إجماع المسلمين والعرب وكلّ من لقيناه على ضرب المثل بقبح الشيطان، دليل على أنه في الحقيقة أقبح من كل قبيح. «الحيوان» (ج6، ص426).

13 الأدب والارتياب، كيليطو، **ص10**

إن أشدّ هزيمة يشهدها الكاتب في حياته، هو كون كتاباته مألوفة ومعروفة لدى القارئ، يسأم منها، ويهرب ويفزع منها إلى كتابات أخرى، يجد فيها اهتمامًا لَبِقًا، ومكانةً لطيفةً، وحظوة لائقة، وأَجْمَل انتصار ينتصره الكاتب هو ظفره بعدوّه القارئ، وإحكام القبضة عليه باستمالته وتدليله واشعاره بأهميَّة بالغة، وهاهنا نتذكَّر كتابات القدماء، في أنهم دائما ما يشعرون القارئ بأنّه جزء منهم، وهذا ما أكَّده عبد الفتاح كيليطو في كتابه "**الأدب والارتياب**"، في إشارته إلى أنَّ الجاحظ مثلا، كان الوحيد الذي استطاع أن يهزم قرّاءه، وأن يجذبهم إليه، وأن يذكّرهم كلَّ مرَّة بالموضوع الذي يتحدَّث عنه، وأن يعتذر منهم في الاستطرادات التي يكثر منها، ويشدِّد على مخاطبتهم، ليكملوا معه رحلة القراءة، وأن يكسب ودّهم، وأساس هذا توظيفه لعبارات من قبيل: أمتع الله بك، جعلك ممن عرف الحقّ، حفظك الله، اعلم رحمك الله، أسعدك الله، أبقاك الله....."، توظيفاتٌ استهوائيَّة نجدها حاضرة في كتابات القدماء، لوعيهم التام بخطورة القارئ وشراسته، فكانوا حذرين منه أشدّ الحذر، وحضور ضمير القارئ أو المتكلِّم حاجة ضروريَّة ومهمَّة.

جاء في "**الأدب والارتياب**" ما يلي: "ملاحظة مفاجئة نجدها في كتاب الحيوان، مفادها أنّ القارئ عدوّ الكاتب، قد لا يكون القارئ عدوّا صريحا، إلا أنه في الخفاء يبحث عن الثغرات وعن نقط الضعف بهدف التّهجّم على الكتاب والنيل من مؤلّفه، ليست الصداقة أساس العلاقة بين القارئ والكاتب، وإنما، على العكس، الضغينة والكراهية والحرب"[14].

أخشى أن أعلِّق على النص فأقع في التكرار أو المسخ، ولكن لا ضير فالنص ليس في ملك أحد، ونقول بأنه تأكيد لما أشرنا إليه فحسب، فالعلاقة بين القارئ والكاتب مبنيَّة على الضغينة، والكراهية والحرب، ولا مجال للصداقة في الكتابات بتاتا، صداقة الكاتب تكون خارج ما يكتب، ولكن داخل الكتابة لا حديث عنها، ونحن الطلبة مثلا، نتذكَّر في الجامعة لحظة أحاديثنا عن الكُتّاب وطبيعة كتاباتهم، فمنَّا المعجب الذي أصابته الصبابة ببعضهم، ومنا المتنفر غير المعجب بهم، ويصل بنا الأمرُ إلى حدِّ الشعور بالسأم والملل في قراءات بعض الكتب، وننشر بيننا أجود الكتابات وأرذلها، لم نكن نعي طبعا في تلك المرحلة أننا أعداء حقيقيّون للكاتب، وأنه يعيش معركة مستمرّة مع قرائه، والقلَّة هم من استطاعوا النجاة من هذه المعركة فالغلبة دائما للقارئ حتى وإن كان ضعيفا.

أصبحنا اليوم ننتقي نوعيَّة الكتب المقروءة بعناية تامَّة، التي نجد فيها حضورًا بارزًا لذاتنا، والتي نحسّ فيها أنَّ كاتبها استطاع أن يهزمنا، نخشى أن نترك كُتَّابا يعتنون بالقرّاء فنبيتُ مصدومين بضياع لحن المشترك الجامع بيننا وبينه.

الكثير من الكتابات اليوم، تَقرأُ سطرها الأول وتعلم ما في وسطها وخاتمتها، تألفها بسرعة وتتنفر منها ومن صاحبها، صياغة وأسلوبا، هي كتابات ننعتها بـــ"السندويتشيَّة"، وجه الشبه فيها أنها وجبة سريعة تنتهي منها

14 الأدب والارتياب، عبد الفتاح كيليطو، دار توبقال، ص10

بسرعة دون أن تشعرك بالشبع والقناعة، فتضطر إلى طهي شيء آخر تسدّ به عنف المعدة، الشيء نفسه بالنسبة لبعض الكتابات التي نصادفها اليوم، لا تستحقّ درجة الصفر في الكتابة، ويسهل على القارئ التّخلُّص منها والقضاء على كاتبها، وطرحه في ذاكرة النسيان بسبب غياب الاستمالة، والمرح والعمق الكتابي، ومن ثمّة، ينهزم الكاتب بسرعة، فيعلن موته الكتابي قبل موته البيولوجي، ولو أصدر مئات الكتابات، فإنه يصعب أن يعيد إرضاء ودّ القارئ، والظفر به مرَّة أخرى، الحسرة على من يظن نفسه كاتبا لنفسه، فستغدو حاضرا غير كائن، ما لم تهتمّ بقارئك، فَاحْرِص على الاهتمام به فهو العدو فاحذره، قد يتَّفق معي صديقي القارئ أو بالأحرى عدوِّي في هذه المسائل؛ لأنه يعيش حتما هذه القضيَّة ولن ينكرها، وسأكون حذرا منك حتى لا تهزمني بسرعة.

بعد تفصيل واستطراد قد يكون مملا، نعتذر فيه للقارئ ونقول: إنَّ الكتابة معركة دائمة بين شخصين، القارئ الذي يشبه شهريار، العدو الأبدي، والكاتب الذي يشبه شهرزاد، ويكون دائما في صراع لا متناه، ويشعر بالقلق في فترة الكتابة، خوفا من أي زلّة تؤدِّي به إلى موت كتابي، في عجزه عن النفاذ إلى مخيلة العدو والظفر عليه، ومن ثم يعلنون موته وتأبينه، ومعناه الهزيمة والانتهاء والتلاشي، يقول خالد بلقاسم في "مرايا القراءة": "إنَّ موت الكاتب، لا بالمعنى البارتي، بل بمعنى تخلّي القارئ عنه، أمرٌ مرعب، عندما يغدو الكاتب مألوفا وتُصبح آليّاته في الكتابة وفي إنتاج المعنى مكشوفة، فذلك يعني انهزامه أمام قرّائه، أي موته الكتابي، في هذه الحالة، تكون الكتابة قد أخرجته من مجهولها نحو معلوم لا تستسيغه القراءة. موت الكاتب قبل موته البيولوجي مولدٌ للاكتئاب الذي يقود إمّا إلى الصمت أو إلى الاحتماء بالتسويق الإعلامي"[15].

بهذا المعنى يتخلَّى القارئ، بوصفه عدوًّا، عن الكاتب حينما تغدو آليّاته الكتابيَّة مألوفة ومعهودة ومكشوفة عنده، فهذا الإلفُ يعلن انهزام الكاتب أمام قرّائه، لأنه لم يكن حذرا، ومن ثمّة يموت كتابيا، بسبب فشله في الظفر على قرّائه الأعداء. إنه انهزام مُولدٌ للكآبة والتهويل والخرق. قال طه حسين: في القراء مكر، فيهم دهاء شنيع، وفيهم استغلال أقل ما يوصف به أنه شديد القسوة، فهم يعلمون أن الأديب الذي يستحق هذا الوصف ولا يستطيع أن يعيش إلا إذا أنتج، لأنه لا يستطيع أن يتلقى الحياة وأحداثها حتى يسيغها ويتمثلها، ثم يخرجها بعد ذلك أدبا في كتاب يقرأ».[16]

الكلمة حرب لا متناهية بين شخصين، يكونان في صراع دائم، يكون فيها الكاتب الخاسر الأكبر إذا أهمل عدوّه القارئ، وعليه إعلان نهايته، وحينما يعجز الكاتب عن الظفر على الأعداء يحتمي بالتسويق الإعلامي لكي يعود إلى الواجهة، واكتساب قرّاء جدد، ونعلم كثيرا من الكُتّاب الذين جعلهم الإعلام في مكانة لا يستحقّونها، ويذكّرني الأمر أساسا بكتب **إعتاب الكُتّاب**، التي يؤلِّفها أصحابها قديما في الأندلس والمشرق من أجل نيل حظوة الأمراء، بالإعلاء من شأنهم أمام الناس، والرفع من قدرهم في المجالس والأثبات، وجملة القول، فليحذر الكاتب الموت الكتابي، وليعدد له بالظفر على القارئ وهزمه، فهو موت أشدّ تهويلا من الموت البيولوجي.

---

15 مرايا القراءة، خالد بلقاسم، ص100

16 طه حسين، علم التربية، ص480

الليلة الرابعة: تصنيف القرّاء

لم يكتف الجاحظ بإيراد مسألة العداوة بين القارئ والكاتب فقط، فقد أجلّ أنواع القراء، وصنّفهم، وخاطب شعور قراء كتبه. فالقارئ لدى الجاحظ نوعان، قارئ تعجل إليه السآمة ولا تفارقه الملالة، وهذا يحتاج إلى تسلية واستنشاط ليذهب عنه الكلل، وسرعان ما تهزمه القراءة وينتصر عليه الكاتب، وقارئ صاحب علم وجدّ، ألف البحث والدراسة، وله وثاقة كبيرة بالتفكير والتنقير، وشديد السّعار والنهم، لا يتسرب إليه الملل أثناء القراءة، ويجد الكاتب صعوبة في الظفر به وعليه، وهو قارئ عميق، يتتبع النص، بمرايا قرائية ذات مشارب معرفية مختلفة. وهمست لي في خاطري أشياء عديدة في ليلة من ليالٍ جاحظية، لقد حذرني الجاحظ في باب عداوة القارئ من الولوج إلى عالم الكتابة ما لم أكن على دراية بمكائد القراء، وبها وصف القارئ بالعداوة، وهاهنا، يحذرني من أن ألج إلى عالم القراءة ما لم أكن إنسانا مجدا، يألف الفكر والكدّ والاجتهاد. الجاحظ في هذا الباب يسخر من القارئ مرة أخرى، ويعلي من شأنه في آنٍ. السخرية لأنه ربط القارئ المَملل بالهزل والاستنشاط والغباء؛ إذ يظنه ظنا يقينيا أن لا حاجة له بما في الكتاب[17] من جد، ومن فوائد، ويعلي من شأنه، لما وصفه بالجد وأجاز له تجاوز باب المرح والهزل، إلى ما هو أولى من ذلك. يقول الجاحظ:

«سنذكر من هذا الشكل عللا، ونورد عليك من احتجاجات الأغبياء حججا. فإن كنت ممّن يستعمل الملالة، وتعجل إليه السآمة، كان هذا الباب تنشيطا لقلبك، وجماما لقوّتك. ولنبتدئ النّظر في باب الحمام وقد ذهب عنك الكلال وحدث النشاط. وإن كنت صاحب علم وجدّ، وكنت ممرّنا موقّحا، وكنت إلف تفكير وتنقير، ودراسة كتب، وحلف تبيّن، وكان ذلك عادة لك لم يضرك مكانه من الكتاب، وتخطّيه إلى ما هو أولى بك»[18].

يجعل الجاحظ قراءه من خلال هذا القول في موقف حرج، إما الاستسلام وعدم تتمة القراءة، والاستسلام معناه أن القارئ يحتاج إلى حجج الأغبياء وطرفهم، بحكم أنه ليس قارئا أصلا، بل إنه قاتل لوقته فقط. وإما أن يستمر القارئ في القراءة، ويتجاوز عنه الهزليات والطرائف، إلى شيء آخر أفضل وأمتع وأفيد؛ لأنه مقدر للقراءة، ولم يلج إليها بحكم قتل الوقت، بل يكدّ للاستفادة والتعمق. ويكون الجاحظ بهذا قد تلاعب بنفسية قرائه، بجعلهم في هذا الموقف الحرج، ومن ثمة، الانتصار عليهم. ويحسّسُ الجاحظ القارئ بثلاثة أمور لا رابع لها، الأول أن يتصنع الجد فيتم قراءة الكتاب، ادعاءً بعدم إحساسه بالسأم من طول الاستطرادات بالكتاب،

---

17 يصف الجاحظ الكتاب، في كتابه المحاسن والأضداد بقوله: : «الكتاب نعم الذخر والعقدة، والجليس والعمدة، ونعم النشرة ونعم النزهة، ونعم المشتغل والحرفة، ونعم الأنيس ساعة الوحدة، ونعم المعرفة ببلاد الغربة، ونعم القرين والدخيل والزميل، ونعم الوزير والنزيل. والكتاب وعاء مليء علماً، وظرف حشي ظرفاً، وإناء شحن مزاحاً، إن شئت كان أعيا من باقل، وإن شئت كان أبلغ من سحبان وائل، وإن شئت سرتك نوادره، وشجنتك مواعظه، ومن لك بواعظ مله، وبناسك فاتك، وناطق أخرس؛ ومن لك بطبيب أعرابي، ورومي هندي، وفارسي يوناني، ونديم مولد، ونجيب ممتع؛ ومن لك بشيء يجمع الأول والآخر، والناقص والوافر، والشاهد والغائب، والرفيع والوضيع، والغث والسمين، والشكل وخلافه، والجنس وضده؛ وبعد فما رأيت بستاناً يحمل في ردن، وروضة تنقل في حجر، ينطق عن الموتى ويترجم عن الأحياء، ومن لك بمؤنس لا ينام إلا بنومك ولا ينطق إلا بما تهوى، آمن من الأرض وأكتم للسر من صاحب السر، وأحفظ للوديعة من أرباب الوديعة؛ ولا أعلم جاراً آمن، ولا خليطاً أنصف، ولا رفيقاً أطوع، ولا معلماً أخضع، ولا صاحباً أظهر كفاية وعناية، ولا أقل املالا ولا إبراما، ولا أبعد من مراء، ولا أترك لشغب، ولا أزهد في جدال، ولا أكف في قتال من كتاب، ولا أعم بيانا، ولا أحسن مؤاتاة، ولا أعجل مكافأة، ولا شجرة أطول عمراً، ولا أطيب ثمراً، ولا أقرب مجتنى، ولا أسرع إدراكاً، ولا أوجد في كل إبان من كتاب.»

18 الحيوان، ج3، ص3

والثاني متجل في السخرية من القارئ كثير السأم، والثالث تحميس القارئ وتحفيزه، وخاصة متى كان مجدا ومحبا للعلم. ومن ثمة، فالقارئ ثلاثة أنواع:

- **القارئ السؤوم:** هو قارئ لا يقرأ إلا الشيء القليل، ويقرأ الكتب القصيرة فقط، وسرعان ما يحس بالسأم من الكتاب، بفعل تعقيد موضوعاته، وطول مباحثه ومطالبه. ولا يقرأ بحثا عن المعرفة ولا رغبة له في التفكير، إنما يقرأ الأمور التي تمتعه وتحسسه بالنشوة، وقال الجاحظ بأنه بحاجة إلى حجج الأغبياء وحكايات الحمقى وطرف مضحكات، لأنها تجعله قادرا على اتمام القراءة وتخرج من قلبه السآمة. ويا قارئ الكتب سؤوما، احمل نفسك على الجد ولا تكن من السائمين.

- **القارئ المتصنع:** يقع هذا القارئ منزلة بين المنزلتين، فلا هو من السائمين، ولا هو من الفطنين، قارئ مصطنع ومتصنع، مصطنع لأنه يبتغي التظاهر بالثقافة والفكر، ومن ثمة، فهذا الادعاء يصنع منه قارئا مصطنعا، ومتصنع لأنه يدعي القراءة ويكذب عليها، وقليلا ما ينجو من نهرها الكبير، تصنّع يذهب بالقارئ إلى عدم اليأس من القراءة والاستمرار في مصاحبة الكتاب، لكن دون عمق جدي في البحث عن الاستفادة، ويأتيه السأم بحكم عدم الصبر على طول الكتاب. والقراء المتصنعون كثيرون، بحكم أنّ قراءتهم للكتاب، مبنية على التظاهر والادعاء فقط. هم قارئون لجميع الكتب، دون قدرتهم على التمييز بين الكتب الجيدة والرديئة. إنه قارئ متكلف بالأساس[19].

- **القارئ الفطن والعميق**[20]: تتحقق هذه الصفة في نظر الجاحظ، في قرّاء قليلين، ويضاء هذا العمق القرائي في القلة القليلة فقط، هم القرّاء المجدون المكدون، الشغوفون بالقراءة، والناهمون لما يقرأون، والانتقائيون لنوع الكتب التي تستحق أن تقرأ، والصابرون على مشقة القراءة وشدتها، والمرحون المستمتعون في نهرها الكبير، والعليلون متى ما لم يلامسوا كتابا، وسمعوا صريره. ومشدود أمرُ هذا النوع من القارئ، إلى التعمق في قراءة النص، والبحث عن المضمرات فيه، والسعي إلى تناصه مع نصوص مختلفة، ويكون ذا

---

19 وصفه الجاحظ بقوله: فإنّ كثيرا ممّن يتكلّف قراءة الكتب، ومدارسة العلم، يقفون من جميع الكتب على الكلمة الضعيفة، واللفظة السّخيفة، وعلى موضع من التأليف قد عرض له شيء من استكراه، أو ناله بعض اضطراب، أو كما يعرض في الكتب من سقطات الوهم، وفلتات الضّجر، ومن خطأ النّاسخ، وسوء تحفّظ المعارض على معنى لعله لو تدبّره بعقل غير مفسد، ونظر غير مدخول، وتصفّحه وهو محترس من عوارض الحسد، ومن عادة التسرّع، ومن أخلاق من عسى أن يتّسع في القول بمقدار ضيق صدره، ويرسل لسانه إرسال الجاهل بكنه ما يكون منه. ولو جعل بدل شغله بقليل ما يرى من المذموم شغله بكثير ما يرى من المحمود- كان ذلك أشبه بالأدب المرضيّ والخيم الصّالح، وأشدّ مشاكلة للحكمة، وأبعد من سلطان الطّيش، وأقرب إلى عادة السّلف وسيرة الأوّلين، وأجدر أن يهب الله له السّلامة في كتبه، والدّفاع عن حجّته يوم مناضلة خصومه ومقارعة أعدائه».

20 في الليلة الثامنة، من كتاب الإمتاع والمؤانسة، تحدث أبو حيان على لسان ابن يعيش عن إتعاب الطالب بالمطولات، قائلا في نص طويل: «قراءة الكتب الكبار ذوات الورق الكثير، مع العناء المتّصل في الدرس والتصحيح والنّصب في المسألة والجواب، والتنقير عن الحق والصواب. وهذا الذي قاله ابن يعيش ليس بحيف ولا خارج عن حومة الحق، وإن كان الأمر فيه أيضا صعبا وشاقا وهائلا وعاملا، ولكن ليس لكلّ أحد هذه القوّة الفائضة، وهذه الخصوصيّة الناهضة، وهذا الاستبصار الحسن، وهذا الطبع الوقّاد، والذهن المنقاد، والقريحة الصافية والاستبانة والتأمّل، لأن هذه القوّة إلهيّة، فإن لم تكن إلهيّة فهي ملكية، وإن لم تكن ملكية فهي في أفق البشريّة، وليس يوجد صاحب هذا النعت إلا في الشاذّ النادر، وفي دهر مديد بين أمّة جمّة العدد، والفائق من كلّ شيء والبائن من كلّ صنف عزيز في هذا العالم الوحشيّ، كما أن الرديء والفاسد معدوم في هذا العالم الإلهيّ، ويمكن أن يقال بالمثل الأدنى: إن من يتكلّم بالإعراب والصحّة ولا يلحن ولا يخطئ ويجري على السليقة الحميدة والضريبة السليمة، قليل أو عزيز، وإنّ الحاجة شديدة لمن عدم هذه السجيّة وهذا المنشأ إلى أن يتعلّم النحو ويقف على أحكامه، ويجري على منهاجه، ويفي بشروطه في أسماء العرب وأفعالها وحروفها وموضوعاتها ومستعملاتها ومهملاتها، ومتى اتفق إنسان بهذه الحلية وعلى هذا النّجار، فلعمري إنّه غنيّ عن تطويل النحويّين كما يستغني قارض الشّعر بالطبع عن علم العروض». «الإمتاع والمؤانسة» (ص89).

خلفية معرفية متنوعة، تمنحه ما يسمى بالمرح القرائي. يقول الجاحظ: «إن حملنا جميع من يتكلّف قراءة هذا الكتاب على مرّ الحق، وصعوبة الجدّ، وثقل المؤونة، وحلية الوقار، لم يصبر عليه مع طوله إلّا من تجرّد للعلم، وفهم معناه، وذاق من ثمرته، واستشعر قلبه من عزّه، ونال سروره على حسب ما يورث الطول من الكدّ، والكثرة من السآمة. وقال ابن الجهم: إذا استحسنت الكتاب واستجدته، ورجوت منه الفائدة ورأيت ذلك فيه- فلو تراني وأنا ساعة بعد ساعة أنظر كم بقي من ورقه مخافة استنفاده، وانقطاع المادّة من قلبه، وإن كان المصحف عظيم الحجم كثير الورق، كثير العدد- فقد تمّ عيشي وكمل سروري.»[21].

القارئ العميق والمرح والفطن، ينسى كلّ مصاعب قراءة الكتب ومشاقها، ويصبر على طولها؛ لأنه متجرّد للعلم، ومخلص للقراءة ومحب لها، ولا يأتيها وقت الفراغ، قارئ ذائق وفهم، وتثمر قراءته الفوائد، ويستشعر قلبه العزة، ويناله السرور والمرح بناء على كثرة كدّه، بسبب طول الكتاب، وقد همس إليَّ الجاحظ في هذه الليلة قائلا: إنّ إحساسك بالسآمة والكد، مولد للمرح والمتعة، ويجعلك هذا تخاف من تتمة كتابي، وقد أستيقن أنك ستحزن على فراقي، فلا يحزنك الأمر، ولا تبتئس، فقد تكون قارئا عميقا. وقد تلامس أيها القارئ أن الجاحظ قد حدّثك بهذا القول، ويقودك إلى الكدّ والجدّ في الدخول إلى عالم القراءة التي لا تقبل السائمين والمتصنعين، فأمرها شديد عليهما، وكن قارئا عميقا، تحس بما أحسست به، لما قرأت قول صاحبي في الليل؛ إذ يحدثني قائلا: «وجملة الكتاب وإن كثر ورقه، فليس مما يمل؛ لأنه وإن كان كتاباً واحداً، فإنه كتب كثيرة في خطابه، والعلم بالشريعة والأحكام، والمعرفة بالسياسة والتدبير، وقال مصعب بن الزبير: إن الناس يتحدثون بأحسن ما يحفظون، ويحفظون أحسن ما يكتبون، ويكتبون أحسن ما يسمعون، فإذا أخذت الأدب فخذه من أفواه الرجال، فإنك لا ترى ولا تسمع إلا مختاراً ولؤلؤاً منظوماً». وقال لقمان لابنه: «يا بني نافس في طلب العلم، فإنه ميراث غير مسلوب، وقرين غير مرغوب، ونفيس حظ من الناس وفي الناس مطلوب»[22].

النفيس من الكتب ما أمتعك، وأمرحك، وشحذ فكرك، وجعلك تتقد، وتلج معالم نفسك، وتعي عوالم العالم، وتدرك قربك من فهم الوجود، وإن طال ورق الكتاب، وامتاز بهذه المواصفات، فلن يشعر القارئ بالملل والسأم[23].

---

21 الحيوان، ج1، ص31..

22 المحاسن والأضداد، الجاحظ.

23 قال الجاحظ في المحاسن والأضداد: «والكتاب هو الذي إن نظرت فيه أطال إمتاعك، وشحذ طباعك، وبسط لسانك، وجود بيانك، وفخم ألفاظك وبجح نفسك، وعمر صدرك، ومنحك تعظيم العوام وصداقة الملوك، يطيعك بالليل طاعته بالنهار، وفي السفر طاعته في الحضر، وهو المعلم إن افتقرت إليه لا يحقرك، وإن قطعت عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة، وإن عزلت لم يدع طاعتك، وإن هبت ريح أعدائك لم ينقلب عليك، ومتى كنت متعلقاً منه بأدنى حبل لم تضطرك معه وحشة الوحدة إلى جليس السوء، وإن أمثل ما يقطع به الفراغ نهارهم وأصحاب الكفايات ساعات ليلهم، نظر في كتاب لا يزال لهم فيه ازياد في تجربة، وعقل ومروءة وصون عرض وإصلاح دين، وتثمير مال، ورب صنيعة، وابتداء إنعام. ولو لم يكن من فضله عليك، وإحسانه إليك، إلا منعه لك من الجلوس على بابك، والنظر إلى المارة بك مع ما في ذلك من التعرض للحقوق التي تلزم، ومن فضول النظر وملابسة صغار الناس، ومن حضور ألفاظهم الساقطة، ومعانيهم الفاسدة، وأخلاقهم الردية، وجهالتهم المذمومة، لكان في ذلك السلامة والغنيمة، واحراز الأصل مع استفادة الفرع؛ ولو لم يكن في ذلك إلا أنه يشغلك عن سخف المنى، واعتياد الراحة، وعن اللعب، وكل ما تشتهيه، لقد كان له في ذلك على صاحبه اسبغ النعم، وأعظم المنة.

الليلة الخامسة: شهرة الكتاب أكثر من كاتبه أو الكاتب والبحث عن الخلود

الكتاب أخلد من كاتبه، وأفكاره أدوم من صاحبه، وأثره أبقى من مؤلفه، ونوره أوضح من منتجه، وعجائبه وغرائبه، وملحه وطرفه، أمرح من مبدعها، ففي منظور الجاحظ، إن الكتاب أفضل من مؤلفه؛ لأنه الأخلد والأبقى والأدوم، بأمور أجملها في قوله: «والكتاب قد يفضل صاحبه، ويتقدّم مؤلّفه، ويرجّح قلمه على لسانه بأمور: منها أنّ الكتاب يقرأ بكلّ مكان، ويظهر ما فيه على كلّ لسان، ويوجد مع كلّ زمان، على تفاوت ما بين الأعصار، وتباعد ما بين الأمصار، وذلك أمر يستحيل في واضع الكتاب، والمنازع في المسألة والجواب. ومناقلة اللسان وهدايته لا تجوزان مجلس صاحبه، ومبلغ صوته. وقد يذهب الحكيم وتبقى كتبه، ويذهب العقل ويبقى أثره. ولولا ما أودعت لنا الأوائل في كتبها، وخلّدت من عجيب حكمتها، ودوّنت من أنواع سيرها، حتّى شاهدنا بها ما غاب عنّا، وفتحنا بها كلّ مستغلق كان علينا، فجمعنا إلى قليلنا كثيرهم، وأدركنا ما لم نكن ندركه إلّا بهم»[24].

الكتاب يبقى ويمتد، والكاتب يبلى وينفد؛ إنّ ما يجعل الكاتب دائما هو كتابه؛ لأنه يُقرأ بكل مكان، ويطلع في كلّ زمانٍ، وينقل سير الأعراب والأمصار، ويقربنا من عجائب الأوائل، مخلدا صورهم وحكمهم، ومنورا لآثارهم الفكرية والأدبية. إنني وأنا أقرأ هذا النص، في ليلة استحكم فيها الهدوء، أتخيل أنّ الفرع قد يدوم أكثر من أصله، فالكتاب مُولّدٌ من الكاتب؛ إلا أنّ الخلود للمُولّد لا للمولود؛ وقد لامست في هذا النص أيضا تقاربه مع الحديث النبوي الذي رواه أبو هريرة، جاء في صحيح مسلم: «حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ أَيُّوبَ، وَقُتَيْبَةُ يَعْنِي ابْنَ سَعِيدٍ، وَابْنُ حُجْرٍ، قَالُوا: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ هُوَ ابْنُ جَعْفَرٍ، عَنِ الْعَلَاءِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ «»[25].

الكتاب من بنات أفكار الكاتب، وهو في محل البنوة، والكاتب في محل الأبوة. إنّ الأشياء التي يعود فيها الأجر إلى ابن آدم بعدما يوارى بالتراب، ولا تنقطع أبداً، هو دعاء ابنه الصالح، ومعناه أنّ عمله خالد معه، ببقاء ابنه الصالح، ومحل الربط هنا، أنّ الكتاب الجيد الذي سهر عليه صاحبه نظما وتنقيحا، يخلد كاتبه بخلوده، ومسألة خلود الكتاب لا ترتبط بشهرة مؤلفه، ولا بالشهرة التي تقدمها الجائزة، وتظهرها وسائل الإعلام، بل بالإتقان الجيد لفعل الكتابة، التي تمنح للنص صفة الخلود. إن الأب الميت تنقطع صلته بالواقع، لكنّ تربيته الصالحة تمنحه عدم انقطاع هذه الصلة، ومن ثمة، يبقى أثره. ومعناه أن تنقطع روح الكاتب، ولا ينقطع أثره، لأنها محفوظة في كتابه. فالخلود للكتاب، والمجد للكاتب، بحكم وعيه التام بالكتابة ومراياها. وويل للكاتب المستهتر بالكتابة من النسيان، وويل له من كتابه الذي ستكثر زلاته ومطباته. والمجد للكاتب المتقن لفعل الكتابة؛ لأن كتابه سيضمن له الخلود.

---

24 الحيوان، ج1، ص59

25 «صحيح مسلم»، أبو الحسين، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (٢٠٦ - ٢٦١ هـ)، تـ: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية: فيصل عيسى البابي الحلبي – القاهرة، (وصَوّرتها: دار إحياء التراث العربي - بيروت) الرقم: 1631 (ج3، ص1255).

إنّ الكتاب يذاع أكثر من صاحبه؛ ويعيش أكثر منه، متى كان نصا أنطولوجيا، مليئا بالفراغات، والثقوب، وبمعان مضمرة لا نهائية. ولعل ألف ليلة وليلة، ومقامات بديع الزمان الهمداني، ومقامات الحريري، وكليلة ودمنة، وغيرها من النصوص الغربية، من النصوص الأنطولوجية الخالدة، هي بمثابة نصوص جاءت من المستقبل، تحمل معها ذكريات الماضي، وتجتذب خطوط العوالم المستقبلية، إنّها بعبارة بورخيس مسوّدة تنتسب إلى لا نهائية الكتابة، تعاد كتابتها كلّ يوم، بفعل ما تمنحه لقارئها من احتمالات متعددة.

يظل الكتاب خالدا ولو كان باسم مستعار، ولعل التاريخ يسجل أسماء كتّابٍ، تخفوا بأسماء مستعارة، فكانوا خالدين بإنتاجهم اللامتناهي، كانوا متخفين من الشهرة الزائفة التي قد تجعل أعمالهم معشوقة بمحض الشهرة؛ لأنها تورث ضررا كبيرا على الكتابة عامة، والأدب تخصيصا، ويغدو اسم الكاتب في الصناعة الكتابية، أو في مصطنع الشهرة، مرتبطا بالسوق الاقتصادية، وبعدد الأرباح التي حصل عليها في بيع كتبه، أو بالقيمة السوقية عامة. فغدت قيمة المكتوب في هذه الحالة، مرتبطة بالربح لا بالجودة، وعليه، فإن ما يحدد قيمة الشيء ليس هو المحتوى، بل القيمة السوقية، مصطنعان اثنان يسهمان في حجب رداءة الكاتب، مصطنع الشهرة، ومصطنع الإعلام، ولم ندخل مصطنع الجائزة؛ لأنها في أحايين كثيرة تصنع مجدا كتابيا وأدبا جيدا، ويمكن أن ندرجها بين المنزلتين، منزلة الرداءة ومنزلة الجودة، يقول خالد بلقاسم: «إن الكتابة هي المتضرر الأكبر من هذه الصناعة، صناعة قائمة على خلق تأمين الاسم الشخصي، واستثمار الإعلام بكل أنواعه، بغاية خلق صورة تُخفي الشيء الواقعي كي تتحول صورته المصطنعة، بلغة جان بودريار، إلى ما فوق الواقع. آليات هذا التحويل، الذي عليه تقوم صناعة الشهرة واصطناعها، عديدة.»[26].

عموما يلجأ الكتّاب إلى التخفي وراء الأسماء المستعارة قديما، خوفا من السلطة الحاكمة. وخلود النص بعيد عن صفة كاتبه، فالخلود نابع من قوة الكتابة، نتذكر ألف ليلة وليلة، والجاحظ نفسه، والمتنبي العظيم، وأبا نواس وأبا العلاء المعري، بما كتبوا، وليس بما كانوا، ولولا مخافة الإطالة، لأطلت في سرد قائمة لكتاب تخفوا وراء أسماء مستعارة.

الليلة السادسة: كتاب الكاتب أقرب نسبا من أبنائه

ويل لكاتب فرّط في كتبه، ولم يهتم بها، وويل لكاتب لم ينقح ما كتبه؛ فذلك أشدّ مرارة عليه، وأدل على عصيانه ونكرانه؛ لأن المكتوب كالمولود، والكاتب والد، وحق الوالد على ولده حقوق عديدة، أولها الاهتمام وثانيها المداومة في تربيته وتعليمه، وحقٌّ على الكاتب الإيمان بمبدأ القرابة في التعامل مع تصانيفه، فقد تكون أكثر قرابة من أبنائه، فإن كان يهين على المؤلف عدم الاهتمام بكتبه وما يكتبه، هان عليه شرفه، وسهل عنده هتك عرضه. وإنّ الآباء يحصدون العقوق من أبنائهم عند الكبر، لأنهم بذروا فيهم قلة الأدب، وعدم الإصرار في تربيتهم. وإن الكتّاب لحاصدون للانتهاء والنسيان، لأنهم بذروا التساهل والتهاون أثناء الكتابة.

26 مرح القراءة، خالد بلقاسم، ص38

وقد همس لي الجاحظ في هذه الليلة بهذا الشأن، ووضحه في الحيوان، وكأن به ينّبه قرّاءه الذين يبتغون خوض غمار الكتابة والتأليف والتصنيف، واحسرتاه لمن ظنّ الأمر مبالغة وكلاما عابرا، ولم يعمل على حمل نفسه للاهتمام بكتبه. قال الجاحظ: «واعلم أنّ العاقل إن لم يكن بالمتتبّع، فكثيرا ما يعتريه من ولده، أن يحسن في عينه منه المقبّح في عين غيره، فليعلم أنّ لفظه أقرب نسبا منه من ابنه، وحركته أمسّ به رحما من ولده، لأنّ حركته شيء أحدثه من نفسه وبذاته، ومن عين جوهره فصلت، ومن نفسه كانت؛ وإنّما الوالد كالمخطة يتمخّطها، والنّخامة يقذفها، ولا سواء إخراجك من جزئك شيئا لم يكن منك، وإظهارك حركة لم تكن حتّى كانت منك. ولذلك تجد فتنة الرجل بشعره، وفتنته بكلامه وكتبه، فوق فتنته بجميع نعمته»[27].

التتبع في التربية أمر يصلح الأبناء، والتتبع في الكتابة أمر يولد الخلود للنص، لأن لفظ الكاتب أقرب نسبا من ابنه، ويبتغي منه العناية الفائقة بكتبه، وما يفوق ذلك، حتى لا يضطر الكاتب إلى رؤية القباحة في مكتوبه كلما طال عليه المدى، فإن طول الدهر يكشف المعائب، ويجعلها تورّثُ الألم في صاحبها، فالكاتب يورّث الانتهاء والنسيان، والوالد يورّث العصيان والتمرد، و«ينبغي للوالد أن لا يسهو عن تأديب ولده ويحسن عنده الحسن ويقبح عنده القبيح ويحثه على المكارم وعلى تعلم العلم والأدب ويضربه على ذلك. قال النبي: «حق الولد على والده أن يحسن اسمه ويحسن موضعه ويحسن أدبه»»[28].

يا صاحب الكتب ومؤلفها، إن صاحبي قد همس لي في هذه الليلة بمعاملة الكتب معاملة العاشق لمعشوقه، والتاجر لماله، والأنيق للباسه، والسكران لخمرته، والأم لابنها، ومن هان عليه ذلك هاله شدة أثره بعد ذلك، «ومن لم تكن نفقته التي تخرج في الكتب، ألذّ عنده من إنفاق عشّاق القيان، والمستهترين بالبنيان، لم يبلغ في العلم مبلغا رضيّا. وليس ينتفع بإنفاقه، حتّى يؤثر اتّخاذ الكتب إيثار الأعرابي فرسه باللبن على عياله، وحتّى يؤمّل في العلم ما يؤمّل الأعرابي في فرسه»[29].

الليلة السابعة: المرأة موضوعة قرائية: «فتنة اللسان والقلم، أشد من فتنة النساء» الجاحظ

أَصِل في كتاب الليالي إلى الليلة السابعة والأخيرة، والتي سأركز فيها أساسا على بعض الموضوعات الطريفة والمليحة التي شدّت انتباهي، وأنا أقرأ نصوص الجاحظ، موضوعات كثيرة، مرتبطة بتيمة المرأة، لأنها لقيت الاهتمام الكبير في متن الجاحظ، ومن ثمة، وسنشير إلى جميع ما ساقه الجاحظ وهو يتحدث عن المرأة، بإيراد نصوص تقريرية تمت عنونتها واستخلاص موضوعها. فموضوعة المرأة ختام لليالٍ قضيتها وأنا أتأمل نصوص صاحب الحيوان، وأتحقق من معانيها، وأقاسي شدة فهم دلالاتها. المرح في هذه الليلة مرح للرجال، وقد يكون عكس ذلك للنساء، وخاصة أنّ صراع ثنائية المذكر في الحيوان حاضرة بقوة، والمتجلية أساسا في شخصية صاحب

27 الحيوان، ج1، ص61

28 «تذكره الآباء وتسليه الأبناء = الدراري في ذكر الزراري» (ص48).

29 «الحيوان» (ج1، ص 41).

الجواري وصاحب الغلمان، ويصح استبدالهما بثنائية المذكر والمؤنث، ولست فيما سأورده من هذه المسائل مائلا إلى صنف من الأصناف، إنما سأكون مبينا لما جاء على لسان الجاحظ لا غير.

العشق في مجلس الجاحظ

يكون أول سؤال يطرحه القارئ على نفسه، ويتبادر إلى ذهنه وهو يقرأ عبارة «العشق في مجلس الجاحظ»؟ ما العشق لدى الجاحظ؟ وإذا كان يعرف معنى العشق فهل كان عاشقا؟ وإذا كان عاشقا لماذا لم تكن أحاديثه عن العشق كثيرة في الحيوان؟ هكذا يتساءل القارئ، وقد يطرح تساؤلات أخرى، لا يمكن أن أضع لها احتمالات لمضمونها وطريقة صياغتها. إني لما أردت البحث عن العشق لديه، بدأت بالبحث في مصنف الحيوان، نظرا لكونه كتابا ضخما يحتوي موضوعات كثيرة، ولكن استغربت لما كان الكلام عنه قليلا، ولن أكون مخطئا إذا قلت فنادرا ما يسوق كلاما عن العشق في الحيوان، فاشتد عليّ الأمر، وسرعان ما أبت إلى الرسائل؛ لأنني أحسب بعبارة طه حسين أنها كتبت لي، واختصها صاحبها بضمير كأنه أنا، فسدّت لي ظمأ ما تراكم في ذهني من التساؤلات، وهي أنني وجدت أحاديث ماتعة عن العشق، وأحببت أن أشاركها مع القارئ، لربما قد يكون شغوفا بسماع أحاديث جاحظية، وأول هاته الأحاديث قوله:

«وقد رأينا وبلغنا عن كثير ممن تلف وطال جُهده وضناه بداء العشق. فعلم أنّه إذا أضيف إلى الحبّ والهوى المشاكلة، أعني مشاكلة الطبيعة، أي حبّ الرجال النساء وحبَّ النساء الرجال، المركَّب في جميع الفحول والإناث من الحيوان، صار ذلك عشقاً صحيحاً. وإن كان ذلك عشقاً من ذكر لذكر فليس إلا مشتقّاً من هذه الشهوة، وإلاّ لم يسمَّ عشقاً إذا فارقت الشهوة. ثم لم نره ليكون مستحكماً عند أوَّل لُقياه حتَّى يعقد ذلك الإلف، وتغرسه المواظبة في القلب، فينبت كما تنبت الحبّة في الأرض حتَّى تستحكم وتشتد وتثمر، وربّما صار لها كالجذع السَّحوق والعمود الصُّلب الشديد. وربما انعقف فصار فيه بوار الأصل. فإذا اشتمل على هذه العلل صار عشقاً تاماً»[30].

نص يخاطب قلب القارئ ويلامسه، وكيف لا تكون الملامسة والعشق يضني ويتعب ويسعد، لعلنا ندرك بعد قراءة النص، أن الجاحظ يجيب عن كل التساؤلات التي ذكرناها في مفتتح هذه النقطة، إنه رأى وسمع عن العشاق الذين تلفوا بالعشق وأجهدوا بدائه، وعاشوا فيه أياما مضنية، ومتى شاكل العشق طبيعة الحب والهوى، صح أن نسميه عشقا، وخاصة في عشق النساء للرجال والرجال للنساء، وما تغير عن هاته المشاكلة الأصلية في العشق، فلا تسمى عشقا، إنّ حب الرجل للرجل والمرأة للمرأة يسمى شهوة لا عشقا؛ لأن أصل المشاكلة خرج عن أصل الطبيعة، ويستحكم العشق عند أول لقاء، ثم تألف النفس ما تحبه وتميل إليه كلّ الميل، فتأبى مفارقته والابتعاد عنه، فيصبح هذا العشق في القلب حبة تنبت كلّ يوم، حتى تصبح شديدة صلبة قوية، فيمسي العشق بعد هذه العلل كلها تاما لا منقصة فيه، وما لم ير هاته العلل فلا يسمى عشقه عشقا،

30 «الرسائل للجاحظ» (ج2، ص168).

والمستفاد أن للعشق علاقةً بالطبيعة الإنسانية، التي يميل فيها الرجال إلى النساء، والنساء إلى الرجال، ولعل القارئ قد أدرك معنى العشق لدى الجاحظ.

ويميل العاشقون إلى المحادثة والمسامرة طويلا، ولا يتم يومهم إذا لم يتبادلوا ألطف الكلام وحلوه، وعبروا عن مشاعرهم لبعضهم، وكم وقتا يسهره العاشقون، وكم ليلا سامروه عشقا أو شهوة، فهم أصحاب الليالي ورفقاء الشموع، ولن تستطيع القلوب العاشقة التي ألفت بعضها وقرّ في قلبها العشق التام لصورة المعشوق تحمل الافتراق، ولكن السؤال المطروح، والذي سيجيب عنه نص من نصوص الجاحظ، ما حال من أصابته الفرقة وابتعد عن معشوقه؟ لعل ما يحصل بعد الفراق شديد وثقيل على الجسد، فقد عرفت أشخاصا وسمعت أقاصيص عشقهم الجميلة في البداية، والحزينة بعد الفراق، فلحظة اللقاء تكون ذات بهاء، ولحظة الفراق لا تكون إلا بالدموع والحسرات، وقد يقول القارئ، كيف تؤكد قولك، وأحدثه أن الجاحظ قد كتب رسالة يوضح فيها المسالة، ويقول فيها: «ثم صارت قلّة العيان تزيد فيه وتوقد ناره، والانقطاع يسعِّره حتى يذهل وينهك البدن، ويشتغل القلب عن كلِّ نافعة، ويكون خيال المعشوق نصب عين العاشق والغالب على فكرته، والخاطر في كلِّ حالة على قلبه. وإذا طال العهد واستمرَّت الأيام نقص على الفرقة، واضمحلَّ على المطاولة، وإن كانت كلومه وندوبه لا تكاد تعفو آثارها ولا ترس رسومها. فكذلك الظَّفر بالمعشوق يُسرع في حلّ عشقه. والعلة في ذلك أنّ بعض الناس أسرع إلى العشق من بعض؛ لاختلاف طبائع القلوب في الرِّقَّة والقسوة، وسرعة الإلف وإبطائه، وقلّة الشَّهوة وضعفها»[31].

انقطاع العاشق عن معشوقه ينهك البدن ويوجع القلب، ويكثر السأم، وينشغل قلب العاشق بما يذكره بصورة المعشوق، ويمسي خياله مصورا لصورته، وهذا يحصل متى كان العشق محصنا بطيئا؛ لأن البطء في الحب مولد لخلوده واستمراره، وحينما يكون العشق بين عاشقين ومعشوقين أسرع كلما كان أفلت وأسرع للانتهاء، فالسرعة في العشق تولد التلاشي والانتهاء، وعلة البطء والسرعة في الحب، راجعة حسب الجاحظ إلى اختلاف طبائع النّاس، فالقلوب الرقيقة سرعان ما يكون العشق إليها أسرع، والقلوب القاسية، يصعب أن يلج إليها العشق من أول نظرة، أو حتى في استمرار اللقاءات، من أراد الخلود لعشقه فليكن من المبطئين، ومن يسارع قلبه إلى العشق، فهو شديد الشهوة لا غير.

العشق في قلب العاشق داء للمعشوق، وما لم يفلح العاشق في ملامسة أطراف قلب المعشوق ضل وتاه؛ لأن العشق يحتاج إلى المشاكلة والملازمة والتوافق، فالأرواح هي من تتواشج وتنسجم وتلتقي، ومن ثمة، تتحابب وتتعاشق، وقلّ ما يكون العشق والحب عن التشابه في الطبائع، أو التشابه في كلّ شيء، إنّ أساس العشق صفاء الروح لا صفاء الجسد، ويصرح الجاحظ أنه نادرا ما يكون الحب ويتم بفعل التشابهات الحاصلات في الظاهر، بل بفعل الأرواح التي يلاقي الله بعضها البعض، دون إرادة الشخص كلّه، يقول الجاحظ: «وقلَّ ما يظهر المعشوق عشقاً إلّا عداه بدائه، ونكت في صدره وشغف فؤاده؛ وذلك من المشاكلة، وإجابة

31 «الرسائل للجاحظ» (ج2، ص168).

بعض الطبائع بعضاً، وتوقان بعض الأنفس إلى بعض، وتقارب الأرواح. كالنائم يرى آخر ينام ولا نوم به فينعس، وكالمتثائب يراه من لا تثاؤب به فيفعل مثل فعله، قسراً من الطبيعة. وقلَّ ما يكون عشقٌ بين اثنين يتساويان فيه إلاّ عن مناسبةٍ بينهما في الشَّبه في الخَلْق والخُلُق وفي الظَّرف، أو في الهوى أو الطِّباع. ولذلك ما نرى الحسن يعشق القبيح، والقبيح يحبُّ الحسن ويختار المختار الأقبح على الأحسن، وليس يرى الاختيار في غير ذلك فيتوهّم الغلط عليه، لكنّه لتعارف الأرواح وازدواج القلوب»[32].

العشق عند الجاحظ نوعان، عشق تام يبدأ ببطء، وينتسب إلى الخلود، وتكون علله عديدة، يبدأ باللقاء ثم الإعجاب، ثم الإلف، فالمشاكلة، وبعدها استقرار صورة العاشق في عقل المعشوق وقلبه، وكلما افترقا معا إلا وأحسا معا بالسأم والاشتياق، والعشق الثاني، هو عشق ناقص، سرعان ما تعجل إليه السآمة، لأنه عشق نشأ بسرعة، ولا يقر على حال واحدة، ويتلاشى وينتهي في أيام قليلة؛ لأن أساس الالتقاء مبني على الشهوة، وما يحفز الشهوة هو ما في الجسد من المحاسن والمباهج، عكس العشق التام، الذي قلّ ما يحس به الشخصان، أما العشق الناقص، ففيه من الأقاصيص ما يجعل الإنسان يكره علل الحب ومصائبه.

العشق والجنس

لعلك أيها القارئ العزيز، استمتعت بما أورده الجاحظ عن العشق، وأدركت أن العشق الحقيقي، هو ما تشاكلت فيه روحان غاية الامتزاج والالتقاء، وقد أسألك هل سألت نفسك يوما ما الغرض من العشق؟ وما سرّ وجوده؟ قد يكون سؤالا غريبا وأبعد في الغرابة؛ ولكنني أحسبه سؤالا هاما، سيجيب عنه الجاحظ في هذه المسألة، التي عنونتها بالعشق والجنس، فبدا لي في النص الذي سأعرضه، أن صاحبي قد جعل العشق علة وسببا للدعوة إلى الجماع، ولو لم يكن العشق ما رغبت نفس الإنسان في الجماع، ولتأكيد هذا المعطى نورد نصا، يقول فيه: «جعل عشق النساء داعيةً للجماع، ولذة الجماع سبيلاً للنسل، والرقة على الولد عوناً على التربية والحضانة - وبهما كان النشء والنماء - وحب الطعام والشراب سبباً للغذاء، والغذاء سبباً للبقاء وعمارة الدنيا»[33].

غاية الله في الإنسان عبادته وعمارة الأرض والتكاثر في النسل، ويتم التكاثر بالزواج والإنجاب، فكان العشق مدعاة للجماع، حتى تتحقق غاية الله تعالى من خلق الإنسان، فبدا أن الحياة تقوم على العلل والأسباب، فترابطت لدينا ثنائية العشق والجنس، نظرا لكونهما تحققان منشدا من مناشد خلق الله تعالى للإنسان.

المرأة تظل سليمة قوية، ما لم يذق قلبها الهوى، فهي أقوى على تحمل جميع الشدائد، وأصبر على محن الزمان، ولكن متى سمعت حلو الكلام، وبادلتها أحاديث بعض جمالها، وسقت لها القول على أنها القمر، وبأنها أخت الغزالة والغزال، وبأنها صاحبة الشمس في الضياء، ومجاورة للظبية والمهاة، لطف قلبها، وخرت عزيمتها،

---

32 «الرسائل للجاحظ» (ج2، ص168).

33 رسائل الجاحظ، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفى: 255هـ)، ت: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1384 هـ - 1964 م، ص144

ومالت إلى الملاطفة، فهن لا يقوين على تحمل الشهوة، ومقاومة الغريزة، فهن أميل إلى الهوى، ولا يقدرن على تحمله، وفي هذا الشأن ساق الجاحظ نصا يقول فيه: «والمرأة سليمة الدين والعرض والقلب، ما لم تهجس في صدرها الخواطر، ولم تتوهّم حالات اللّذّة وتحرّك الشهوة. فأمّا إذا وقع ذلك فعزمها أضعف العزم، وعزمها على ركوب الهوى أقوى العزم»[34].

المرأة سليمة وشديدة، تقوى على جميع المصاعب والمتاعب، لا يتعبها ما تفعله في التصابح والتماسي، ولكن هيهات حين يتسرب إلى قلبها حديث اللذة، وتأتيها لحظة الشهوة، وتحركت مشاعرها، فإن عزمها على المقاومة قليل، وأمر رده مستحيل، فيصبح عزمها على ركوب الهوى قويا، فالمرأة بالفطرة قوية ولكن لما تأتيها موسيقى العواطف، فإن جسدها لا يقوى على حمل إيقاعات ما يخالج نفسها ويخاطب قلبها، ويداعب أحاسيسها.

المرأة والعقل

يشاع في الثقافة العربية عزيزي القارئ أن المرأة أقل عقلا من الرجل، وضربت في ذلك أمثال كثيرة عن قلة عقول النساء، فهن أضعف في هذا المنحى، وأميل إلى العاطفة أكثر من العقل، والذي يجعلك تقر بهذا الحكم، أنك متذكر لحديث النبي صلى الله عليه وسلم: «ناقصات عقلٍ ودين»، فالوجه التأويلي للحديث بعيد عن التنقيص من النساء، ولكن خذ الحديث بمعناه الظاهر، لتعلم أنّ الجاحظ أيضا أورد قولا طريفا في رسائله، يحدثنا عن ضعف عقل المرأة، ولذلك أحببت عنونة النقطة بالمرأة والعقل. إنّ صاحبي في الرسائل يصف المرأة بأنها ضعيفة العقل، وعقولهن أقوى من عقول الصبيان، ولكن لربما قد تقرأ سيدة ما نص الجاحظ، فتسرع إلى الحكم على بخاسة قوله، وفظاعة رأيه، وقلة معرفته للنساء، ولربما تصفه بالمعقد، ولتعلم أننا ينبغي أن نذكر أمواتنا بخير، ولتهدأ قليلا، ولتقرأ النص بتأمل، حتى تدرك المقصود، يقول الجاحظ: «وقد رأينا النساء أضعف من الرجال عُقولاً، والصِّبيان أضعف عقولا منهم، وهم أبخل من النساء، والنِّساء أضعف عقولاً من الرجال. ولو كان العقل كلَّما أشدَّ كان صاحبه أبخل، كان ينبغي أن يكون الصبيُّ أكرم الناس خصالاً. ولا نعلم في الأرض شرّاً من صبيّ: هو أكذب الناس وأنم الناس، وأشره الناس وأبخل الناس، وأقل الناس خيراً وأقسى الناس قسوة»[35].

من يشتد عقله، وتزهر ذاكرته، يكون أبخل الناس، ومن قلّ عقله يكون أكرم الناس، ولكن نرى أن الجاحظ، ساق قول قلة عقل النساء، وقوة عقل الرجال، وقلة عقول الصبيان، للتأكيد أن الرجل، رغم قوة عقله هو أكرم الناس، والنساء أيضا هن كريمات لفضل عقولهن على عقول الصبيان، فيتأكد أن فكرة ارتباط قوة العقل بالبخل وضعفه بالكرم غير صحيحة؛ لأن الصبيان على الرغم من قلة عقولهم، فهم أبخل الناس وأكذبهم، وأشرههم وأقلهم خيرا، وأقساهم قسوة. ولعل قول الجاحظ عن الصبيان صحيح، ووصفهم النساء بضعف العقل والرجال بقوة العقل مردود.

---

34 «الحيوان» (ج3، ص139).

35 «الرسائل للجاحظ» ج1، (ص196).

للتأكيد على رجاحة عقول نساء العرب، وسلامة ذكائهن، وشدة حرصهن على تربية الأبناء، وفضل عقولهن على رجال العجم، فقد ساق الجاحظ قولا عن أميمة أم تأبط شرًا، لما سئلت عن ابنها، يقول: «وفيما يحكى عن امرأة من عقلاء نساء العرب- وإذا كان نساء العرب في الجملة أعقل من رجال العجم، فما ظنّك بالمرأة منهم إذا كانت مقدّمة فيهم- فرووا جميعا أنّ أمّ تأبّط شرًا قالت: «والله ما ولدته يتنا، ولا سقيته غيلا ولا أبتّه على مأقة». فأمّا اليتن فخروج رجل المولود قبل رأسه؛ وذلك علامة سوء، ودليل على الفساد. وأما سقي الغيل، فارتضاع لبن الحبلى؛ وذلك فساد شديد»[36].

لعل القارئة والسيدة قد تبسم وتضحك قليلا، بعدما عبست وسخطت لما قرأت النص الأول، قد عمدت لإيراد القول، لأدخل إلى قلبك بعض السرور، وشيئا من المرح، حتى لا تكون رسائل الجاحظ ثقيلة على قلبك، فتميلين إلى تبغيض الكتاب، فنساء العرب كما جاء في النص عاقلات، وعقلهن أقوى من عقول رجال العجم، وقصة أم تأبط شرا، دليل مبين لهذا، فكثير من نساء العرب يعلمن بأسرار الحياة وخباياها ويفطنن مسائل التربية ومطالبها، فقولها والله ما ولدته يتنا، يبرز وعيها بأن الطفل الذي يولد فأخرج رجليه قبل رأسه طفل عليل غير سليم، قلّ ما يستقيم حاله في الحياة، لكون أن رجيله لينتان وقد تتعرضان إلى أمر ما أثناء الولادة، وقلّ ما ينجو الذين ولدوا وقد أخرجوا أرجلهم من مشكلة ما، وأما قولها وما أرضعته غيلا، معناه أن تأبط شرا لم يرضع من أمه في فترة حملها، بل أرضع حليبها السليم، فالمرأة الحامل أثناء الولادة يفسد لبنها، ولا يصلح للإرضاع والرضاعة إطلاقا، ففيه فساد شديد، وأما قولها لم أبته على مأقةٍ[37]، فمعناه لم يبت ليله حزينا كئيبا، وماذا يقول طب الولادة الحديث من هذا الوعي التام لنساء العرب في الجاهلية بمسائل التربية والولادة؟!!.

الشهوة والعرقية والتقليد

يشير الجاحظ في رسائله إلى أن الشهوة تقليد، وأن ميل الرجال لبعض النساء والنساء لبعض الرجال أمر مصطنع لم تنشأ عليه فطرة الإنسان، ولم توضع في قلبه، بل العادات والتقاليد هي التي كانت وراء الشهوة، ولذلك عنونت هذه النقطة بالشهوة والعرقية والتقليد، فإن الرجال يشتهون النساء لا حسب طبائعهم، بل بحسب ما وجد عليه سلفه، وكذلك النساء، فإنهن يشتهين من الرجال ما تعاهدت عليه القبيلة أو المدينة أو الأسرة، وهذا ما يقربنا منه الجاحظ في مقتطف من رسائله، يقول فيها: «وإن نظر البضان إلى نساء السودان بغير عين الشهوة فكذلك السودان في نساء البضان. على أن الشهوات عاداتٌ وأكثرها تقليد. من ذلك أن أهل البصرة أشهى النساء عندهم الهنديات وبنات الهنديات والأغوار. واليمن أشهى النساء عندهم الحبشيات وبنات الحبشيات. وأهل

36 «الحيوان» (1/ 189).

37 قال الجاحظ: «وأما قولها في المأقة، فإنّ الصبيّ يبكي بكاء شديدا متعبا موجعا، فإذا كانت الأمّ جاهلة حرّكته في المهد حركة تورثه الدّوار، أو نوّمته بأن تضرب يدها على جنبه. ومتى نام الصبيّ وتلك الفزعة أو اللّوعة أو المكروه قائم في جوفه، ولم يعلّل ببعض ما يلهيه ويضحكه ويسرّه، حتى يكون نومه على سرور، فيسري فيه ويعمل في طباعه، ولا يكون نومه على فزع أو غيظ أو غمّ؛ فإنّ ذلك ممّا يعمل في الفساد. والأمّ الجاهلة والمرقصة الخرقاء، إذا لم تعرف فرق ما بين هاتين الحالتين، كثر منها ذلك الفساد، وترادف، وأعان الثاني الأوّل والثالث الثاني حتّى يخرج الصبيّ مائقا. وفي المثل: «صاحبي مئق وأنا تئق»، يضرب هذا المثل للمسافر الأحمق الرّفيق والزّميل، وقد استفرغه الضّجر لطول السفر فقلبه ملآن، فأوّل شيء يكون في ذلك المئق من المكروه لم يحتمله بل يفيض ضجره عليه، لامتلائه من طول ما قاسى من مكروه السفر» «الحيوان» (1/ 190)

الشام أشهى النساء عندهم الروميات وبنات الروميات. وكل قوم فإنما يشتهون جلبهم وسبيهم. إلا الشاذ، وليس الشاذ قياسا. قالوا: وأطيب الأفواه نكهةً، وأشدها عذوبةً، وأكثرها ريقاً، أفواه الزنج»[38].

لا يشتهي البضان النساء السوداويات، ولا يميل السودان إلى النساء البيضاوات، بحكم أنّ الشهوة لا ترتبط بنزعات الإنسان وطبائعه الأصلية، إنما مبنية على العادات والتقاليد، ولا حاجة للمحاججة على تأكيد هذا، فأمره في الواقع كثير، وقصصه لا متناهية، وعندنا في المغرب مثلا، فالأمازيغ لا يتزوجون من العرب، وأهل الشمال يميلون لمن عندهم في الشمال، والسود عندنا يشتهون السود، وهكذا أثرت النزعات القبلية على الشهوة، ولعل القارئ يوافق مقالة الجاحظ؛ لأنه قد خاطبه وذكّره بأقاصيص الماضين وكيفية جعلهم الشهوة مرتبطة بالعرق والتقليد لا مرتبطة بالطبع والنزعات.

ثنائية المؤنث والمذكر

تحضر ثنائية المذكر والمؤنث في كتب الجاحظ كثيرا، ونالت الحظ الأوفر في الحكايات التي يقصها، إنه يورد أحاديث عن الرجال والنساء، مرة يكون بالتصريح، ومرة يكون على لسانين، إما على لسان صاحب الجواري، أو لسان صاحب الغلمان. سأقوم بإيراد هاته النصوص وبيان مدلولها واستطلاع الجوانب المتعلقة بالنساء والرجال، ومن ذلك قوله حديثا عن شدة فتنة النساء: «إني أعلم أن فتنة اللسان والقلم، أشدّ من فتنة النساء، والحرص على المال»[39].

منطوق النص أن المرأة فتنة، وفتنتها شديدة، ولكن فتنة القلم أكبر من فتنتهن، ومسكوت النص، أنّ الرجال لا علاقة لهم بالفتنة، فتبدى هاهنا صراع ضمني بين ثنائيتين، المذكر والمؤنث، فالفتنة مؤنثة في اللفظ وفي المعنى، وتظل لصيقة بالنساء في الواقع أيضا، والفتنة هنا تعظيم من شأن المرأة وقيمتها، فجسدها مقدس، يلهي الرجال ويتلفهم، ويجعلهم تائهين، ولا يصل الرجال إلى المرأة بسهولة، فالمرأة عندنا لا بدّ أن تطلب، وأن تحرص، وأن تكون تاجا فوق ممتلكها، ومن ثمة، فإن جسدها فتنة على الرجال، لما يمتلكن من الشفاه الساحرة، والنهود الرمانة، والعيون البراقة، والخصور المتلفة، والخدود الجميلة الناصعة، والخصور والأرداف العظيمة، ويكفي للقارئ أن يقرأ ما جاء في رسالة الطيف من الكلام اللطيف في وصف النساء، ليظهر له أن الفتنة في المرأة قيمة، وأجمل ما تسمى به البنت أن تسمى بفتنة[40]. ولتتمعن قول الجاحظ في قوله: «ومن أطيب ما في المرأة وأشهاه شفتاها للتقبيل، وأحسن ما يكونان إذا ضارعتا السَّواد»[41].

---

38 «الرسائل للجاحظ» (ص، 215)

39 «الحيوان» (ج4، ص361).

40 قال الجاحظ: «ومما يستدل به على تعظيم شأن النساء أن الرجل يستحلف بالله الذي لا شيء أعظم منه، وبالمشي إلى بيت الله، وبصدقة ماله، وعتق رقيقه. فيسهل ذلك عليه، ولا يأنف منه. فإن استحلف بطلاق امرأته تربد وجهه، وطار الغضب في دماغه، ويمتنع ويعصي، ويغضب ويأبى، وإن كان المحلف سلطاناً مهيباً، ولو لم يكن يحبها، ولا يستكثر منها، وكانت نفسها قبيحة المنظر، دقيقة الحسب، خفيفة الصداق، قليلة النسب. ليس ذلك إلا لما قد عظم الله من شأن الزوجات في صدور الأزواج» «الرسائل للجاحظ» (ج3، ص147).

41 «الرسائل للجاحظ» (ج1، ص205).

والدليل على أن المرأة أرفع حالا من الرجل، وأفضل منه في أمور، ما أورده الجاحظ في رسائله، مخبرا حال من ينقص من النساء، يقول في ذلك: «والمرأة أيضاً أرفع حالاً من الرجل في أمور. منها: أنها التي تخطب وتراد، وتعشق وتطلب، وهي التي تفدى وتحمى»[42].

المرأة مقدسة، أنعم الله عليها بنعمة اللطافة والجمال، حتى تستهوي الرجل وتسعده، فهي أرفع حالا منه؛ لأنه هو من يطلب يدها، ويخطبها من دارها، ويعشقها ويرغب في وصالها، ويفديها ويحميها، ولتبسم المرأة على هذه الحظوة، وليسعد الرجال على وجودهن، وليفرحوا كثيرا؛ على الأحضان التي تحتضنهم كلّما قاست عليهم الحياة، واشتدت عليهم صوارفها، وقد دافع صاحبي على ناس يستنكرون المرأة ويستعبدونها، ويحتقرون حقوقها، بقوله: «إن النساء فوق الرجال، أو دونهم بطبقة أو طبقتين، أو بأكثر، ولكنا رأينا ناساً يزرون عليهن أشد الزراية، ويحتقرونهن أشد الاحتقار، ويبخسونهن أكثر حقوقهن»[43].

فالنساء فوق الرجال، ولا يجوز التنقيص منهن، ويؤكد النص طريقة معاملة المرأة قديما، فقد كانت عرضة لكثير من الانتقادات، والتشغيب والاضطهاد، حتى تم حرمانها من حقوقها، ويرى القارئ شدة دفاع الجاحظ عنها، وتفضيلها على الرجال، فالمؤنث عنده مقدم على المذكر، ويقول مناسبة بينهما: «وفي اكتفاء الرجال بالرجال والنساء بالنساء انقطاع النسل، وفي انقطاع النسل بطلان جميع الدين والدنيا. وغشيان الرجل الرجل والمرأة المرأة من المنكوس المعكوس، ومن المبدل المقلوب؛ لأن الله جل ذكره إنما خلق الذكر للأنثى، وجعل بينهما أسباب التحاب وعلائق الشركة، وعلل المشاكلة وجعل الذكر طبقاً للأنثى، وجعل الأنثى سكناً للرجل. فقلب هؤلاء الأمر وعكسوه، واستقبلوا من اختار الله لهم بالرد والزهد فيه»[44].

أساس رسالة الله تعالى إحقاقه بالعبادة، وأساس خلق الإنسان عمارة الأرض بغية تحقيق رسالة الحق سبحانه، ويقتضي هذا وجود البشر بمختلف الأجناس، بوجود الذكر والأنثى، فلا يصح أن يكتفي الرجال بالرجال والنساء بالنساء، ففي اكتفاء الذكر بالذكر والأنثى بالأنثى مخالفة لنسق الطبيعة، ولفطرة الإنسان، وفيه انقطاع للنسل، ومتى انقطع النسل بطلت الحياة وبطل معها الدين، فلا يجوز أن يميل الرجل إلى الرجل شهوة، ولا أن تميل النساء إلى النساء شهوة، فالأمر منقصة وعيب؛ لأن الرجل في حاجة إلى المرأة، والله تعالى خلق الذكر للأنثى، وجعل بينهما أسبابا للتجاذب والتحاب والميل، فالأنثى للرجل حسب الجاحظ سكن، والرجل للأنثى محتضن، وهما لبعضهما ملجأ، ولا يجوز قلب سنة الله، بخلق مشاكلة بين جنسين أنثويين أو ذكريين.

استمرارا في الحديث عن المؤنث والمذكر، فقد وردت في الرسائل حوارات ثنائية بين الجواري والغلمان، وهي ثنائية تبرز الصراع الدائم بين الذكر والأنثى، ولا أبتغي الإطالة في هذه النقطة كثيرا، بل سأكتفي بإيراد نصوص تؤكد هذا النقاش بينهما، ويكفي للقارئ أن يقرأ ما ورد هنا، وله أفضال كثيرة إذا أزال عن نفسه كلّ

42 «الرسائل للجاحظ» (ج3، ص146).

43 «الرسائل للجاحظ» (ج3، ص151).

44 «الرسائل للجاحظ» (ج3، ص43).

الثقل، وعاد إلى الرسائل، ليمتع نفسه بها؛ لأنها كتبت له، وممّا قاله صاحب الجواري في الدفاع عن النساء قوله: «فإن الحديث قد جاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم: «حُبِّبت إليَّ النِّساء والطِّيب، وجعل قُرَّة عيني في الصلاة». ولم يأت للغلمان مثل هذه الفضيلة. وقد فُتن بالنساء الأنبياء عليهم السلام، منهم داود، ويُوسف، عليهما السلام»[45].

النص ضرب في الغلمان ومعارضة لهم، ورد عنهم، وفيه فخر واضح للنساء، بأنهن نلن فضيلة عظيمة، في كونهن حبّبن إلى الأنبياء، وجعلن فتنة لهم، وممن فتن يوسف وداود عليهما السلام، وفي هذا شرف عظيم، وحظوة جليلة للنساء، لكونهن نلن فضيلة ما نالها الغلمان والصبيان، وهنا تحضر النزعة الأنثوية كثيرا.

وفي سياق الأحاديث بين الغلمان والجواري، فقد ساق الجاحظ على(صاحب الغلمان) نصوصا يعيب فيها المرأة وينتقص من قيمتها، ردا على صاحب الجواري يقول: «من عيوب المرأة أنّ الرجل إذا صاحبها شيَّبتْ رأسه، وسهَّكت ريحه، وسوَّدت لونه، وكثر بوله. وهنَّ مصايد إبليس وحبائل الشيطان، يُتعبن الغنيَّ، ويكلِّفن الفقير ما لا يجد. وكم من رجلٍ تاجرٍ مستورٍ قد فلَّسته امرأته حتَّى هام على وجهه، أو جلس في بيته، أو أقامته من سوقه ومعاشه. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ما تركت بعدي فتنةً أضرَّ على الرجال من النِّساء»[46].

إن المرأة كما جاء على لسان صاحب الغلمان، ثقيلة على الرجل، تصيبه بالضجر، وتشيبه وتسوّده وتسبب له الأرق والقلق، وتكدر المعيشة في وجهه، وتضنيه كلّ يوم، لكثرة صراخها، وشدة مطالبها[47]، وجعلهن صاحب الغلمان مصايد إبليس وحبائل الشيطان، لأنهن الأسهل على الإغراء، فأول باب يلج منه الشيطان للغواية هو بابهن، وبدا أن النص يحط من قيمة المرأة في الظاهر، وفي الباطن يبرز الصراع الأنثوي الذكوري الدائم، فكل واحد يسعى إلى فرض وجوده، والأمر الموضح سلفا أن الجاحظ ساوى بينهما، فالذكر خلق للأنثى والأنثى خلقت للذكر[48]

---

45 «الرسائل للجاحظ» ج2، ص 99).

46 «الرسائل للجاحظ» (ج2، ص 102).

47 جاء في كتاب «طبائع النساء وما جاء فيها من عجائب وأخبار وأسرار»، لأبي عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه ابن حبيب ابن حدير بن سالم المعروف بابن عبد ربه الأندلسي (المتوفى: 328هـ)، مكتبة القرآن - القاهرة (ص160): «أعلم النَّاس بالنسَاء لعبدة بن الطّيب قَالَ أَبُو عَمْرو بن الْعَلَاء اعْلم النَّاس بالنسَاء عَبدة بن الطَّبِيب حَيْثُ يَقُول فَإِن تسألوني بالنسَاء فإنني عليم بأدواء النِّسَاء طَبِيب إِذا شَاب رَأس الْمَرْء أَو قل مَاله فَلَيْسَ لَهُ فِي ودهن نصيب يردن ثراء الْمَرْء حَيْثُ علمنه وشرخ الشَّبَاب عِنْدهن عَجِيب وَهَذِه الأبيات لعلقمة بن عَبدة الْمَعْرُوف بالفحل وَأول القصيدة طحا بك قلب فى الحسان طروب شرّ النِّسَاء وَقيل لأعرابي عَالم بالنسَاء صف لنا شرّ النِّسَاء قَالَ: شر هن النحيفة الجِسْم القليلة اللَّحْم المحياض الممراض الصَّفْرَاء المسئومة العسراء السليطة الذرفاء السريعة الوثبة كَأَن لسانها حَرْبَة تضحك من غير عجب وَتقول الْكَذِب وَتَدْعُو على زَوجهَا بالْحَرْب أنف فى السَّمَاء واست فى المَاء إياك وَهَؤُلَاء وفى رِوَايَة مُحَمَّد بن عبد السَّلَام الخشنى قَالَ إياك وكل امْرَأَة مذكرة مُنكرَة حَدِيدَة العرقوب بادية الظنبوب منتفخة الوريد كَلامهَا وَعِيد وصوتها شَدِيد تدفن الْحَسَنَات وتفشى السَّيِّئَات تعين الزَّمَان على بَعْلهَا وَلَا تعين بَعْلهَا على الزَّمَان لَيْسَ فِي قَلبهَا لَهُ رأفة وَلَا عَلَيْهَا مِنْهُ مَخَافَة إِن دخل خرجت وَإِن خرج دخلت وَإِن ضحِكت بَكت وَإِن بَكى ضحِكت وَإِن طَلقهَا كَانَت حرفته وَإِن أمْسكهَا كَانَت مُصِيبَة سفعاء ورهاء كثيرة الدَّعَاء قَلِيلَة الإرعاء تَأْكُل لما وَتوسع ذما صخوب غضوب بذية دنية لَيْسَ تطفأ نارها وَلَا يهدأ إعصارها ضيقَة الباع مهتوكة القناع صبيها مهزول وبيتها مزبول إِذا حدثت تُشِير بالأصابع وتبكى فِي المجامع بادية من حجابها نباحة على بَابهَا تبكى وهى ظالمة وَتشهد وهى غَائِبَة قد دلى لسانها بالزور».

48 جاء في البرصان والعرجان والعميان والحولان قول الجاحظ: «قالوا: ولمّا قدم معاذ على النبي عليه السلام ومعه أصحابه الذي قدم بهم سجدوا للنبي عليه السلام. وكانوا يرون ذلك من صنيع العامّة تعظيما للنبي صلّى الله عليه وسلّم، فقال النبي: «اسجدوا لربّكم، وأكرموا أخاكم. ولو أمرت أحدا يسجد لأمرت المرأة أن تسجد لبعلها» «البرصان والعرجان والعميان والحولان» (ص327).

كيد النساء بعضهن لبعض

لعل فكرة التشاغب والتخاصم والتباغض والمكائد ترج في عالم النساء أكثر من عالم الرجال، فهن أميل إلى حقد بعضهن البعض، وأسرع إلى المخاصمة بينهن، وهن متنافسات متباغضات حتى في أتافه الأمور، فتراهن عزيزي القارئ في الكثير من شؤون الحياة متشاحنات متحانقات في اللباس، ومتحاسدات في المشية والجمال، ومتحاقدات في مهارة الطبخ، وهن في التلاسن بينهن شديدات، وقلّ من ينكر أن النساء مع بعضهن البعض حقودات، فهن لغز لا مقدرة للواحد على فهمه، وينقل الجاحظ هذه الصورة عنهن، وعن كيد بعضهن لبعض في قصص كثيرة، لطيفة بديعة، أسوق منها قصة يقول فيها: «طلَّق رجلٌ امرأته، فمرَّ رجلٌ في بعض الطُّرقات فسمع امرأةً تسأل أخرى عنها فقالت: البائسة طلَّقها زوجها! فقالت: أحسن بارك الله عليه. فقال لها: يا أمة الله، من شأن النِّساء التعصُّب بعضهن لبعض، وأسمعك تقولين ما قلت. قالت: يا هذا، لو رأيتها لعلمت أن الله تعالى قد أحلَّ لزوجها الزِّنى، من قُبح وجهها»[49].

القول شديد وفيه حكمة وصورة، الحكمة أن الرجل عالم بتعصب النساء بعضهن لبعض، وحقد بعضهن لبعض، وهنّ عازمات على السخرية من امرأة قبيحة، أو غير متزوجة، والعكس حاصل، فغير المتزوجات يفعلن بالمتزوجات الأعاجيب، والصورة التي ينقلها الجاحظ، هي أن النساء لا يرضون حتى بالتفوق على بعضهن البعض، وليعد القارئ العزيز إلى كتب أخبار النساء في الثقافة العربية، ليعرف أن مكائد النساء فظيعة، ولا تقتصر مكيدتهن على الرجال فحسب، بل حتى على بعضهن البعض، فتظل المرأة شرسة؛ لأنها تخوض الحرب مع كل شيء، مع الحياة ومع الرجال، ومع النساء، حتى مع وجهها حينما تسعى إلى تزينه وتجميله، فالجمال بالنسبة إليهن شيء مقدس، وجسدهن فتنة ينبغي أن تتسم بآيات البهاء.

افتتان الرجال بمحادثة النساء

الرجال مفتونون بأحاديث النساء، ويشدّهم الشوق لملاطفتهن ومحادثتهن، وجاء في رسائل الجاحظ أن العرب في الجاهلية كانوا مولعين بالنساء، تتحقق سعادتهم ويتحقق مرحهم بمسامرتهن، ولعل المرح حاصل ومتحقق في ألف ليلة وليلة، في شخصية شهرزاد الخالدة، التي رفضت أن تموت، فهي شخصية أنطولوجية، لم يبلغها الفناء، ولم يتحول عنها شبابها، وقد كانت مسامرة لشهريار الذي عجز عن فهمها، وما أظن أن شخصا سيدعي أنه فهم الليالي الأنطولوجية لشهرزاد، وما أحسب أن شخصا سينكر ولع الرجال بالنساء، ولو لم يكن ذلك لما سميت العرب مصاحب ومسامر النساء بالزير. يقول الجاحظ: «فلم يكن بين رجال العرب ونسائها حجابٌ، ولا كانوا يرضون مع سقوط الحجاب بنظرة الفَلْتة ولا لحظة الخُلْسة، دون أن يجتمعوا على الحديث والمسامرة، ويزدوجوا في المناسمة والمثافنة، ويسمَّى المولع بذلك من الرجال الزِّير، المشتَّق من الزيارة. وكلّ ذلك بأعين الأولياء وحضور الأزواج، لا ينكرون ما ليس بمنكر إذا أمنوا المنكر، حتّى لقد حسك في صدر أخي

49 «الرسائل للجاحظ» (ج2، ص127).

بُثينة من جميل ما حسك من استعظام المؤانسة، وخروج العذر عن المخالطة، وشكا ذلك إلى زوجها وهزَّه ما حشّمه، فكمنا لجميلٍ عند إتيانه بثينة ليقتلاه، فلما دنا لحديثه وحديثها سمعاه يقول ممتحناً لها: هل لك فيما يكون بين الرِّجال والنساء، فيما يشفي غليل العشق ويُطفئ نائرة الشوق؟ قالت: لا. قال: ولِمْ؟ قالت: إنَّ الحبَّ إذا نكح فسد! فأخرج سيفاً قد كان أخفاه تحت ثوبه، فقال: أما والله لو أنْعمت لي لملأته منك! فلمَّا سمعا بذلك وثقا بغيبه وركنا إلى عفافه، وانصرفا عن قتله، وأباحاه النظر والمحادثة»[50].

لم يكن بين رجال العرب ونسائهم حجاب، لوجود الحياء، واحترام حرمة النساء وتقديسهن، فكان الرجل شديد الخوف على عرض المرأة، سواء كانت قريبة له أو بعيدة، فكانت النسوة تسامرن الرجال وهن يعلمن نقاء قلوب الرجال[51]، ويعلمن بشهامتهم، ويعرفن أن الرجل العربي لا تحدثه نفسه باختلاس اللحظات لهتك أعراضهن، لدرجة أن المولوع بالنساء كان يسمى بالزير، وكما داء في اللسان فهو: «الَّذِي يُخَالِطُ النِّسَاءَ وَيُرِيدُ حَدِيثَهُنَّ لِغَيْرِ شَرٍّ، وَالْجَمْعُ أَزْوارٌ وأَزْيارٌ، وزِيَرَةٌ، والأُنثى زِيرٌ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا يُوصَفُ بِهِ الْمُؤَنَّثُ، وَقِيلَ: الزِّيرُ الْمُخَالِطُ لَهُنَّ فِي الْبَاطِلِ، وَيُقَالُ: فُلَانٌ زِيرُ نساءٍ إِذا كَانَ يُحِبُّ زِيَارَتَهُنَّ وَمُحَادَثَتَهُنَّ وَمُجَالَسَتَهُنَّ، سُمِّيَ بِذَلِكَ لِكَثْرَةِ زِيَارَتِهِ لَهُنَّ، وَالْجَمْعُ الزِّيَرَةُ؛ قَالَ رُؤْبَةُ...الزِّيرُ مِنَ الرِّجَالِ: الَّذِي يُحِبُّ مُحَادَثَةَ النِّسَاءِ وَمُجَالَسَتَهُنَّ».[52] وكما أشرت، فإنّ نص الجاحظ يعطي صورة جلية عن القيم الأخلاقية التي يمتاز بها الرجل العربي في الجاهلية والإسلام، وتنماز بها النساء العفيفات الظريفات، فلم يزل الناس على هذا الإلف وهاته المحادثات والمسامرات بين رجال العرب ونسائهم حتى فشت في الناس اللوثة التي ساءت بها أخلاقهم وأخلاقهن، وقد أوضح ابن الجوزي سر هذا الإطلاق وانعدام الحجاب بين النساء والرجال في نص بديع يقول فيه: «وإنّما أطلقت العرب حديث الرّجال إلى النّساء لمّا كانوا يرون من النّقص في الرّيب، ويأخذون أنفسهم بحفظ الجيران، وما يعرف بعضهم من بعضٍ من استعمال الوفاء، والتّحرّز من العار. لأنّ الرّجل منهم كان يصون حرمة جاره وصاحبه كصيانة الابنة والأخت والزّوجة من حرمه. لا يرى أحدٌ منهم لنفسه رخصةً في إضاعة ذلك، وإنّما يتحمّل الغدر، ويرخص نفسه فيه، من باين البوادي، وخالط الحضر؛ لأنّه رأى أجناس العبيد، وأخلاط العوام، وقد نشأوا على عادةٍ فجروا عليها ولن يستوي من كرم طبعه وصحّت بنيته وترك الفواحش وجانبها تنزّهاً عنها ولأنّها محظورةٌ عليه وغير مباحة له»[53].

النص مؤكد لما تحدث عنه الجاحظ، بأن اجتماع النساء بالرجال في الجاهلية لم يكن عارا، ولم يكن في عهد الإسلام حراماً، بل كان أمرًا ألفته قلوب الناس وتعاهدت عليه لعدم وجود الفجور وانتشار ما يفسد هاته

50 «الرسائل للجاحظ» (ج2، ص 148)

51 قال محقق المحاسن والأضداد: «أما الجاحظ فقد عالج هذا الموضوع في رسالة مستقلة هي رسالة «القيان». وهو يحمل على حجاب المرأة ويدعو إلى السفور ويقدم البراهين المنطقية والاجتماعية والدينية التي تسند موقفه. فهو يخبرنا أن العرب لم يعرفوا الحجاب في الجاهلية، وكان الرجال والنساء يجتمعون على الحديث والمسامرة. وفي الإسلام أجاز الدين للنساء الطواف بالكعبة مكشفات الوجوه. ولم يحرم عمر بن الخطاب السفور رغم زهده وورعه وفقهه وعلمه» «المحاسن والأضداد» (ص8).

52 «لسان العرب» (4/ 336)

53 «أخبار النساء»، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: 597هـ) (منسوب خطأ في المطبوع لابن قيم الجوزية)، شرح وتحقيق: الدكتور نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت – لبنان، 1982 (ص174)

المسامرات، وهذا ما أوضحه صاحبي في قوله: «فلم يزل الرِّجال يتحدثون مع النساء، في الجاهلية والإسلام، حتَّى ضُرب الحجاب على أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم خاصَّة، وتلك المحادثة كانت سبب الوصلة بين جميلٍ وبثينة، وعفراء وعُروة، وكثيِّر وعزَّة، وقيسٍ ولُبنى، وأسماء ومقِّش، وعبد الله بن عجلان وهند، ثم كانت الشرائف من النساء يقعدن للرِّجال للحديث، ولم يكن النظر من بعضهم إلى بعض عاراً في الجاهلية، ولا حراماً في الإسلام»[54].

ولتعلم عزيزي القارئ أن نفس الرجل تميل إلى محادثة النساء، ونفس المرأة تميل إلى محادثة وملاطفة الرجال، حتى تنتج بينهم صلات التزاوج والتحابب والعشق، وكلّ ذلك فيما يرضي الله تعالى، دون ارتكاب معصية أو اقتراف ذنب.

تشبيهات أو مسميات المرأة

تطلق على المرأة في الجاهلية أسماء وتشبيهات عديدة، بحكم أن الثقافة العربية ثقافة بدوية، والأمر نفسه يسري على الرجال، ولكن ما يهمنا أساسا في هذه النقطة، هو معرفة بعض التشبيهات والأسماء التي سميت بها النساء قديما، وبالتركيز على ما ساقه الجاحظ في كتبه، حيث لما كنتُ أقرأ ما كتبه في الحيوان، شدّ انتباهي حديثه عن المرأة في بعض المسائل، بإيراد نصوص طريفة يشبهها ببعض الحيوانات، وحسبت ذلك من الطرف والمضحكات، وقد تحسبها قارئة من الأمور القبيحة التي لا يجب الحديث عنها، ومما أورده صاحبي في هذا السياق، قوله إن المرأة تسمى كبشة، وكبيشة، قال: «والمرأة تسمى كبشة، وكبيشة. والرجل يكنى أبا كبشة»[55]. وتحقق هذا القول لما قال صاحب اللسان: «وَفِي التَّهْذِيبِ: وكُبَيْشَةُ اسْمُ امرأَة»[56]، فالمرأة سميت بالكبشة أو النعجة لما فيها من خير وبركة، ولدلالتها على الرزق الكثير والمال الوفير والجاه العريض، وقول الجاحظ بأن الرجل يكنى بأبي كبشة، فصحيح قوله، وتأكيده أن المشركين يكنون على النبي صلى الله عليه وسلم بأبي كبشة؛ لأنه يذكرهم بشخص خرج عن ملتهم في عبادة الأصنام والأوثان، فأصبحوا يكنون عليه بأبي كبشة وذكرت قصته في لسان العرب[57].

المرأة إذن، تسمى بالكبشة أو النعجة[58]، دلالة على جودها وكرمها، وهي تسمية ليست عيبا، بل ذات أبعاد دلالية ورمزية، وتتأكد هذه الرمزية في تأويل المعبرين لرؤية الكبشة أو النعجة في المنام بالمرأة الغنية والشريفة واللطيفة المليحة، وهذا ما جاء في «حياة الحيوان الكبرى» للدميري بقوله: «النعجة في المنام امرأة

54 «الرسائل للجاحظ» (ج2، ص 148)

55 «الحيوان» (ج5، ص246).

56 «لسان العرب» (6/ 338)

57 «وَكَانَ مُشْرِكُو مَكَّة يَقُولونَ لِلنَّبِيّ، صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وسلم: ابنُ أبي كَبْشة، وأبو كَبْشة: كُنْيَةٌ. وَفِي حَدِيثِ أبي سُفْيَانَ و هِرَقْل: لَقَدْ أَمِرَ أَمْرُ ابن أبي كَبْشة؛ يَعْنِي رسولَ اللَّه، صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ أصلُه أَنَّ أبا كَبْشة رَجُلٌ مِنْ خُزَاعَة خَالَفَ قُرَيْشًا فِي عِبَادَةِ الأَوثان و عبَدَ الشِّعْرَى العَبُورَ، فسَمّى المُشْرِكُونَ سَيِّدَنَا رسول اللَّه، صلى اللَّه عليه وسلم، ابنَ أبي كبشة لِخِلَافِهِ إياهم إلى عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالى، تَشْبِيهًا بِهِ، كَمَا خَالَفَهُمْ أبو كبْشة إلى عِبَادَةِ الشِّعْرى؛ مَعْنَاهُ أَنَّهُ خالفنا كَمَا خالفنا ابنُ أبي كَبْشة. وَقَالَ آخَرُونَ: أبو كَبْشة كُنْيَةُ وَهْب بْن عَبْدِ مَنَافِ جَدُّ سيدِنا رَسُول اللَّهِ، صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنْ قِبَل أُمّه فَنُسِبَ إليه لأنه كَانَ نَزَع إليه فِي الشبَه، وَقِيلَ: إنما قِيلَ لَهُ ابن أبي كَبْشة لأَنّ أبا كَبْشة كَانَ زَوْجَ المرأة الَّتِي أَرْضَعَتْه، صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» «لسان العرب» (6/ 338).

58 «لسان العرب» (2/ 380): العربُ تَكْني بالنَّعْجَةِ وَالشَّاةِ عَن المرأة

شريفة غنية إذا كانت سمينة؛ لأنه قد كني عن النساء بالنعاج كما تقدم، ومن أكل لحم نعجة ورث امرأة، وصوفها ولبنها مال. ومن رأى نعجة دخلت منزله نال خصبا في تلك السنة. والنعجة الحامل خصب ومال يرتجى، ومن صارت نعجته كبشا، فإن زوجته لا تحمل أبدا. وقس على هذا في جميع الإناث. والنعاج الكثيرة نساء صالحات، وربما دلت رؤيتهن على الهموم والأفكار»[59]، وقال الجاحظ: «والنِّعاج أيضاً قد تُوصف بدوام الأكل، حتى زعم بعض الناس أنّ النِّساء في الجملة آكل من الرجال؛ لأن أكل النساء يكون متفرقا، من غُدْوة إلى الليل، والرجل أكله في الدَّفعة أكثر من هذا في الجملة»[60].

يدرك القارئ بهذه النصوص التي سقتها، أن المرأة تسمى بالكبشة والنعجة، ولعل ما يؤكد المسألة أنّ النساء مع بعضهن البعض يلقبن أنفسهن بالنعاج أو البقر، وما تشابه مع الكبشة عامة، ولا أرى سببا مقنعا لعدم تقبل القارئات لهذا القول، فلا سلب فيه ولا عيب.

مما أورده الجاحظ في تشبيهات المرأة، أنّ مشيها إذا كانت سمينة يشبه مشي القطاة، وهي: «طائر معروف، واحده قطاط، والجمع قطوات وقطيات، وممن ذكر أن القطا من الحمام الرافعي في كتاب الحج والأطعمة»[61]. ويمكن للقارئ النظر إلى القطاة والمرأة السمينة، فإن مشيهما يكون بالتمايل، تارة على الشمال وتارة إلى اليمين، قال الجاحظ: «ويشبّه مشي المرأة إذا كانت سمينة غير خرّاجة طوّافة بمشي القطاة في القرمطة والدّلّ. وقال ابن ميّادة»[62].

النص ينقل صورة عن مشي المرأة السمينة، ويبرز فطنة العرب في خلق تشبيهات عجيبة بين الإنسان العربي وطبيعته البدوية، هناك أساس أنثربولوجي يحكم هذه المسميات والتشبيهات، وحقا يحتاج الأمر إلى دراسة عميقة في هذا الشأن، ولعل قارئا يقرأ الفكرة، وتشده العزيمة للبحث في ذلك، ونستمر في التشبيه بالقطا، فقد وجدت نصا للدميري، يفسر المسألة قائلا: «العرب تصف القطا بحسن المشي لتقارب خطاها، ومشيها يشبه مشي النساء الخفرات بمشيتهن. ومن أحسن ما رأيت في ذلك قول هند بنت عتبة يوم أحد في غير رواية ابن هشام: نحن بنات طارق ... نمشي على النمارق مشي القطا النواتق»[63].

القطا تتمايل أيضا، وهذا التمايل موجود في بعض النساء، ويدل على إعجابهن بأنفسهن، لجمالهن الفتان النضر، الذي يروي ناظره، ومن ذلك قول الدميري: «ربما دلت القطاة على امرأة معجبة بنفسها، وهي ذات جمال غير الفة والله تعالى أعلم»[64].

---

59 «حياة الحيوان الكبرى» (2/ 490)

60 «الرسائل للجاحظ» (ج2، ص341).

61 «حياة الحيوان الكبرى» (2/ 342)

62 «الحيوان» (ج5، ص305).

63 «حياة الحيوان الكبرى» (2/ 346)

64 «حياة الحيوان الكبرى» (2/ 348)

ومما شبهت به المرأة وساقه الجاحظ في الحيوان، أنّ كف المرأة يشبه بشحمة الأرض أو الرمل، وهي حشرة ودويبة[65] تشبه العنكبوت، تسبح في الرمل أو الأرض المبللة كما تسبح السمكة في البحر، ومعروف أن للمرأة كفا غليظا، ولما أراد العرب وضع تشبيه له، شبه بهذه الشحمة، ومن ذلك قول الجاحظ: «وممّا يغوص في الرّمل، ويسبح فيه سباحة السّمكة في الماء، شحمة الرّمل، وهي شحمة الأرض، بيضاء حسنة يشبّه بها كفّ المرأة»[66]. فكف المرأة إذاً، يشبه بالدويبة[67] الصغيرة أو الشّبَتُ[68]، وما يؤكد هذا التشبيه والتشابه، ما جاء في «حياة الحيوان الكبرى»، بقول الدميري على لسان الزمخشري: «وقال الزمخشري، في ربيع الأبرار: إنها دويبة منقطة بحمرة، كأنها سمكة بيضاء، يشبه بها كف المرأة. وقال هرمس: إنها دابة صغيرة طيبة الريح، لا تحرقها النار، وتدخل في النار من جانب وتخرج من جانب»[69].

تحقق أن العرب قديما أطلقت على المرأة تشبيهات ومسميات على نسق تأثرها بالطبيعة البدوية، منها تشبيه بعض من جسدها وجسمها وطريقة مشيها أو أكلها ونومها بالحيوان أو بعض الحشرات، والأدلة في هذا المنحى كثيرة، فقد رآهم الجاحظ «يسمّون الرجل جملا ولا يسمّونه بعيرا، ولا يسمّون المرأة ناقة؛ ويسمّون الرجل ثورا ولا يسمّون المرأة بقرة، ويسمّون الرجل حمارا ولا يسمون المرأة أتانا؛ ويسمّون المرأة نعجة ولا يسمّونها شاة. وهم لا يضعون نعجة اسما مقطوعا، ولا يجعلون ذلك علامة مثل زيد وعمرو، ويسمّون المرأة عنزا»[70]. فتحقق أن البنية البدوية للإنسان العربي جعلته ينحت نفسه من هذه الطبيعة، ويربط ذاته بها، فيعمد إلى جعل المرأة نعجة أو ظبية أو مهاة أو كبشة، أو قطاة وحمامة، وجعل الرجل ضبعا أو أسدا أو حمارا، أو فهدا، وما يتكاثر من المسميات والتشبيهات المأخوذة من الطبيعة الصحراوية التي سكنت جسد الإنسان العربي، ومن طريف ما نختم به هذه النقطة، أن المرأة تسمى «بالدعسوقة: بفتح الدال دويبة كالخنفساء وربما قيل ذلك للصبية والمرأة القصيرة تشبيها بها قاله في المحكم وفي مختصر العين للزبيدي أيضا إلا أنه ضبطه بالقلم بفتح الدال في نسخة صحيحة»[71].

---

65 «قال في المحكم: هي دويبة لها ست قوائم طوال، صفراء الظهر، وظهور القوائم سوداء الرأس، زرقاء العينين، وقيل: دويبة كثيرة الأرجل، عظيمة الرأس، واسعة الفم، مرتفعة المؤخر، تحرث الأرض، وهي التي تسمى شحمة الأرض. والجمع أشباث وشبثان. وقال الجوهري: الشبث، بالتحريك، دويبة كثيرة الأرجل ولا تقل شبث بإسكان الباء الموحدة. والجمع شبثان مثل خرب وخربانط. «حياة الحيوان الكبرى» (2/ 67)

66 «الحيوان» (ج6، ص505.

67 قال الأزهري: هي دويبة ملساء تعدو وتتردد كثيرا، تشبه سام أبرص إلا أنها أحسن منه، ولا تؤذي وتسمى شحمة الأرض، وشحمة الرمل، وهي أنواع كثيرة، منها الأبيض والأحمر والأصفر والأخضر وكلها منقطة بالسواد، وهذه الألوان بحسب مساكنها فإن منها ما يسكن الرمال ومنها ما يسكن قريبا من الماء والعشب، ومنها ما يألف الناس وتبقى في جحرها أربعة أشهر لا تطعم شيئا، ومن طبعها محبة الشمس لتصلب فيها» «حياة الحيوان الكبرى» (2/ 167).

68 جاء في اللسان أن: «الشَّبَثُ دُوَيْبَّةٌ وَاسِعَةُ الفَمِ، مُرْتَفِعَةُ المُؤَخَّرِ، تُخَرِّبُ الأَرْضَ، وَتَكُونُ عِنْدَ النُّدُوَّةِ، وتأكل العَقَارِبَ، وَهِيَ الَّتِي تُسَمَّى شَحْمَةَ الأَرضِ؛ وَقِيلَ: هِيَ العنكبوتُ الكثيرةُ الأَرْجُل الكبيرةُ، وعمَّ بعضُهم بِهِ العنكبوتَ كلَّها» «لسان العرب» (2/ 158). وهي: «»شحمة الأرض تغوص في الرمل كما يغوص طير الماء في الماء. وقال غيره: الحلكة بالهاء وهي فيما ذكروا دويبة كأنها سمكة تكون في الرمل، فإذا أحست بالإنسان، دارت في الرمل وغاصت فيه» «حياة الحيوان الكبرى» (2/ 429)

69 «حياة الحيوان الكبرى» (2/ 70)

70 «الحيوان» (ج1، ص 139).

71 «حياة الحيوان الكبرى» (1/ 468)

المرأة والغناء

إن من صفات المرأة المائزة رقة صوتها، وارتباطها بالغناء، وإمتاعها المخاطب بحلاوة لسانها، واستمالته بنبراتها الرقيقة، وإن الإنسان يبتغي دائما سماع الغناء من شفاه يود تقبيلها. فالمرأة في الغناء أصل، وأما الرجل فدخيل عليه، وهذا ما ينقله الجاحظ في رسائله التي أظنها كتبت لكل قارئ ومخاطبة لكل راغب في فهم الحياة، ويقول متحدثا عن كون الرجال دخلاء على النساء في الغناء: «وعلى أن الرجال دخلاء على النساء في الغناء، كما رأينا رجالاً ينوحون، فصاروا دخلاء على النوائح. وبعد، فأيما أملح وأحسن، وأشهى وأغنج، أن يغنيك فحل ملتف اللحية، كث العارضين، أو شيخ منخلع الأسنان، مغضن الوجه...أم تغنيك جارية كأنها طاقة نرجس، أو كأنها ياسمينة، أو كأنها خرطت من ياقوتة، أو من فضة مجلوة، بشعر عكاشة بن محصن»[72].

سماع الغناء من جارية أو امرأة حسناء ونرجس وياقوتة ذات شفاه براقة وأسنان بيضاء وعيون لامعة أشهى من سماعه من رجل ملتف اللحية، وشيخ منخلع الأسنان، منغص الوجه، وذلك أن الغناء حق من حقوق النساء، وهن إليه أقرب، ونسبة إتقانهن له أوفر، فأما الرجال فهم أبعد عن الغناء، وقد لا يتوافق هذا القول مع الفترة الحالية، بحكم أنّ الغناء لم يعد مرتبطا بالنساء فقط، بل أصبح الرجال أتقن له. وقد أوضح الجاحظ الأشياء التي يجوز للمرأة أن تغنيها، فهي لا بد أن تغني شعر الغزل والتشبيب، يقول في ذلك: «فأما الغناء المطرب في الشعر الغزل فإنما ذلك من حقوق النساء. وإنما ينبغي أن تغني بأشعار الغزل والتشبيب، والعشق، والصبابة بالنساء اللواتي فيهن نطقت تلك الأشعار، ويهن شبب الرجال، ومن أجلهن تكلفوا القول في النسيب. وبعد، فكل شيء وطبقه، وشكله ولفقه، حتى تخرج الأمور موزونة معدلة، ومتساوية مخلصة»[73]. إذاً، فالغناء في المرأة أصل، وفي الرجل فرع، وقد «سئل حكيم عن فرق ما بين غناء النساء والرجال، فقال: ما خلقت الأغاني إلا للغواني. وقيل: نعيم الدنيا أن تسمع الغناء من فم تشتهي تقبيله»[74]، وما يدري الحكيم كم شفاها نود تقبيلها لرقة وجمال صوتها.

ذوات اللحى والشوارب

نقل الجاحظ في حيوانه من الطرائف من يمتع القارئ، ويجعله مرحا، ومن بين الأمور الطريفة التي نقلها عن النساء، أنهن فيهن ذوات اللُّحى واللِّحى والشوارب، ولعل هذا ظاهر، وصادفناه في أماكن كثيرةٍ، وتظهر هاته اللحى والشوارب في العجائز أكثر، يقول الجاحظ: «وقد توجد المرأة ذات لحية. وقد رأيت ذلك، وأكثر ما رأيته في عجائز الدّهاقين، وكذلك الغبب[75] والشارب، وقد رأيت ذلك أيضا. وهي ليست في رأي العين بخنثى،

---

72 «الرسائل للجاحظ» (ج3، ص144).

73 «الرسائل للجاحظ» (ج3، ص145).

74 «محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء» (1/ 820)

75 جاء في «لسان العرب» (1/ 637): يُقَالُ غَبَبٌ وغَبْغَبٌ. الكِسَائِيُّ: عَجُوزٌ غَبْغَبُها شِبْر، وَهُوَ الغَبَبُ. والنَّصِيلُ: مَفْصِلُ مَا بَيْنَ العُنُق والرأس مِنْ تَحْتِ اللِّحْيَيْن.

بل نجدها أنثى تامّة. إلا أن تكون لم تضرب في ذلك بالسبب الذي يقوى، حتى يظهر في غير ذلك المكان. ولا تعرض اللحى للنساء، إلا عند ارتفاع الحيض، وليس يعرض ذلك للخصي. وقد ذكر أهل بغداد، أنّه كان لابنة من بنات محمّد بن راشد الخنّاق، لحية وافرة، وأنّها دخلت مع نساء متنقّبات إلى بعض الأعراس لترى العرس وجلوة العروس، ففطنت لها امرأة فصاحت: رجل والله! وأحال الخدم والنساء عليها بالضرب، فلم تكن لها حيلة إلا الكشف عن فرجها. فنزعن عنها وقد كادت تموت»[76].

فلا غرابة في أن يجد المرء نسوة ذوات اللحى والشوارب؛ لأن الأمر مسألة عادية وإن خرجت عن المألوف، ولا يتعلق وجود هذا النوع من النساء بعيب يسمى بالخنثى، بل هن إناث كاملات أهلكهن الزمان ليصبحن كما وصف الجاحظ.

سلاح المرأة

للمرأة أسلحة كثيرة، وأولها الولولة والصراخ، هذا ما ينقله الجاحظ ويصوره في كتاب الحيوان، حيث إن النساء كلما أحسسن بالخطر والضعف لجأن إلى الصراخ، طلبا الرحمة والرأفة أو جلبا لمساعد لهن في كربتهن، ويتضح هذا الأمر في قوله: «والمرأة إذا ضعفت عن كلّ شيء فزعت إلى الصّراخ والولولة[77]؛ التماسا للرّحمة، واستجلابا للغياث من حماتها وكفاتها، أو من أهل الحسبة في أمرها»[78].

منطوق النص أن المرأة إذا أحست بالضعف تلجأ إلى الولولة، وواضح عندنا هنا في المغرب عزيزي القارئ، أن المرأة كلما استغربت من شيء أو فزعت من أمر ما، تضع يدها في فمها قائلة «أويلي»[79]، ويكون هذا عند الفزع أو الخوف أو الاستغراب.

المرأة والخرافة

من منا لم يسمع بالحكايات الخرافية؟ ومن منا لم يجالس جدّته لتقص عليه أقاصيص غريبة، وخرافات كثيرة؟ ومن منا لم يسمع من أمه غرائب ما حصل لأسلافنا وأجدادنا، كلّنا سمعنا بالغول وعيشة قنديشة والحصان الطائر، وسمعنا بخرافات مصطنعة، ونرى بأن الجاحظ ينقل صورة عن صناعة الخرافة من قبل النساء، فهن من يقلن قولا في الصبيحة فيمسي بين الناس والنساء على أنه حقيقة، ثم تمر عليه الأيام فيصير خرافة تحاكيها الألسن وتقصها الجدات على الأحفاد. يقول الجاحظ: «وأما قول النساء وأشباه النساء في الخفافيش، فإنهم يزعمون أن الخفاش إذا عضّ الصبي لم ينزع سنه من لحمه حتى يسمع نهيق حمار وحشيّ.

---

76 «الحيوان» (ج1، ص77).

77 جاء في «لسان العرب» (2/ 386): إذا حَكَوْا ضاعَفوا هَجْهجَ كَمَا يضاعفونَ الوَلْوَلَة مِنَ الوَيل، فَيَقُولُونَ وَلوَلَتِ المرأةُ إذا أكثرت مِنْ قَوْل الوَيْل»

78 «الحيوان» (ج6، ص516).

79 من ذلك أيضا قولها: «لسان العرب» (13/ 562): وَهْوَهَ: الوَهْوَهَةُ: صِيَاحُ النِّسَاءِ فِي الحُزْن.

فما أنسى فزعي من سنّ الخفاش، ووحشتي من قربه! إيمانا بذلك القول، إلى أن بلغت. وللنساء وأشباه النساء في هذا وشبهه خرافات، عسى أن نذكر منها شيئا إذا بلغنا إلى موضعه إن شاء الله»[80].

قوله إن الخفاش متى عضّ صبيا لا ينزع سنّه حتى ينهق حمار وحشي خرافة مصطنعة من قبل النساء، ويصرح الجاحظ أنّ لهن خرافاتٍ كثيرة في هذا الباب، ولولا خشية الإطالة لذكرتها كلها، وفصلت فيها تفصيلا مملا، ولكننا نخشى أن تطول الليالي عليك أيها القارئ، ولكن الأساس المهم هنا، أن الجاحظ، يظهر أن النساء وأشباه النساء صنّاعات خرافات[81].

المرأة والأصل

يقال في الثقافة العربية من أراد زواج المرأة، فلينظر إلى أهلها، فإنها تشابه أحدا منهم، فإن وجدهم خابثين فليبتعد وإن كانوا صالحين فقد فاز بامرأة خيرة، أهلها خيرون، وهذا ما ينقله الجاحظ في الحيوان، يصف بأن المرأة لا تخرج عن مشابهة واحد من أهلها، يقول: «وقد زعم الأصمعي أنّ رجلا من العرب قال لصاحب له: إذا تزوّجت امرأة من العرب فانظر إلى أخوالها، وأعمامها، وإخوتها، فإنها لا تخطئ الشبّه بواحد منهم! وإن كان هذا الموصي والحكيم، جعل ذلك حكما عامّا فقد أسرف في القول، وإن كان ذهب إلى التّخويف والزّجر والترهيب كي يختار لنفسه، ولأنّ المتخيّر أكثر نجابة فقد أحسن»[82].

النص مروي عن الأصمعي، وصدّره الجاحظ بقوله زعم وادعى، ومعناه أنّ الأمر ليس ضروريا، فنظر الرجل إلى أصل المرأة رغبة في زواجها مسألة قد تكون صحيحة أو غير صحيحة، ولكن ما يهمنا أن هاته الإشارة الأصمعية التي ذكرها الجاحظ، تتشابه مع بعض الأمثلة الشعبية، منها قولنا: «تزوج بنت الدار الكبيرة وإن كانت البنت حمقاء»، وقولنا: «اقلب البرمة على وجهها تخرج البنت لعله شبيهة بأمها»، ويتضح أن الجاحظ قد قدم صورة عن الراغبين في اختيار زوجاتهم، أنه يكون بالنظر إلى أصل المرأة، فإنها لا تخطئ أن تكون شبيهة بأصل من أصولها، أو أهل من أهلها.

آخر المطاف ختام الليلة السابعة التي جعلت فيها المرأة موضوعا، بالبحث عن موضوعتها في متن الجاحظ، وبيان الصورة التي ينقلها في نصوصه الكثيرة، وخاصة في المفاخرة الماتعة العجيبة بين صاحب الجواري وصاحب الغلمان، وبها سنحاول وضع خاتمة لهذه الليلة، والتي سأركز في أساسها على الغرض من هاته المفاخرة التي تستحق دراسة مستقلة، والتي يورد فيها صاحبها تفاضلات كثيرة، مقصدها أنّ الجاحظ يبتغي التخلي عن الأوصاف التي سميت بها المرأة ولقبت بها في الجاهلية، من قبيل النعجة والبقرة والشاة والظبية والقطاة،

80 «الحيوان» (ج3، ص259).

81 «ومن خرافات العرب قالوا: إن السموم لما فرقت على الحيوانات احتبست العظاءة عند التفرقة حتى نفد السم، وأخذ كل حيوان قسطه منه على قدر السبق إليه، فلم يكن لها فيه نصيب. ومن طبعها أنها تمشي مشيا سريعا ثم تقف، ويقال: إن ذلك لما يعرض لها من التذكر والأسف، على ما فاتها من السم وهذه تسمى بأرض مصر السحلية». «حياة الحيوان الكبرى» (2/ 168).

82 «الحيوان» (3/ 83).

والانتقال إلى مسميات تتناسب وجمال المرأة وقيمتها، وما يجسد هذا المقصد والتأويل هو المحاورة التي سأنقلها في هاته الخاتمة، أولها قول (صاحب الجواري): «لم نسمع بعاشق قتله حبّ غلام. ونحن نعدّ من الشّعراء خاصة الإسلاميّين جماعة، منهم جميل بن معمر قتله حبّ بثينة، وكثيّر قتله حبّ عزّة، وعروة قتله حبّ عفراء، ومجنون بني عامر هيّمته ليلى، وقيس بن ذريح قتلته لبنى، وعبيد الله بن عجلان قتلته هند، والغمر بن ضرار قتلته جمل. هؤلاء من أحصينا، ومن لم نذكر أكثر»[83].

يفتخر صاحب الجواري هنا، بأن عشق المرأة قد سبب في قتل العاشقين، وبأنه لم يكد يسمع بموت عاشقة أحبت غلاما، وأسرد مجموعة من الشعراء الذين أوجعهم الحب وقلتهم الوله، ذكر المشهورين، ولم يعرض جميع الشعراء الذين قتلوا بالحب، وهذه مفاخرة عجيبة، يفتخر بها صاحب الجواري، ولكن طريق رد صاحب الغلمان على القول، ستبين بالأساس، أن المقصد من المفاخرة بين صاحبي الجواري والغلمان، تسعى إلى التملص من تشبيهات المرأة غير المتناسبة مع رقتها وجمالها، وحضرتني في هذه المسألة قصيدة تؤكد قول صاحب الجواري في موت العاشقين يقول فيها الشاعر[84]:

قل للظباء بذي الأرا ... ك إذا مررت بهن جائز.

ألكن قتل العاشقي ... ن محل في الشرع جائز.

أوعدتم فوفيتم، ... والوعد منكم غير ناجز.

إن الذي رحل الخليط ... بقلبه وأقام عاجز.

ألا تجشم في هواه ... إثرهم قطع المفاوز.

حتى يظل يجيبه ... قلقاً، ويمسي الطرف غامز.

أترى متى أنا منكم ... بوصالكم يا فوز فائز.

ولقد خلوت بها وأب ... عدت العذارى والعجائز.

ليلاً، فكان عفافنا ... ما بيننا والصون حاجز.

حاشا صحيح الحب يوْ ... ماً أن يقام مقام ماعز.

---

83 «الرسائل الأدبية» (ص172)

84 «مصارع العشاق» (1/ 104)

رد صاحب الغلمان على قول صاحب الجواري، مبينا أنّ الشعراء الذين عدّهم صاحب الجواري، إنما كانوا يسكنون القفار، وبعيدين عن الرفاهية، وقريبين من قساوة العيش، ولازمي الوحوش والطبيعة الخشنة، فكان ذلك سببا في تشبيههم المرأة بالحية والكبشة والنعجة، وغيرها من الأوصاف، وأظهر أن هناك من الغلمان ما يفوق جمال عزة وليلى وعبلة وبثينة وعفراء، يقول (صاحب الغلمان): لو نظر كثّير وجميل وعروة، ومن سمّيت من نظرائهم، إلى بعض خدم أهل عصرنا ممن قد اشتري بالمال العظيم فراهة وشطاطا ونقاء لون، وحسن اعتدال، وجودة قدّ وقوام، لنبذوا بثينة وعزّة وعفراء من حالق، وتركوهنّ بمزجر الكلاب. ولكنك احتججت علينا بأعراب أجلاف جفاة، غذوا بالبؤس والشّقاء ونشئوا فيه، لا يعرفون من رفاهة العيش ولذّات الدنيا شيئا، إنّما يسكنون القفار، وينفرون من الناس كنفور الوحش، ويقتاتون القنافذ والضّباب، وينقفون الحنظل، وإذا بلغ أحدهم جهده بكى على الدّمنة ونعت المرأة، ويشبّهها بالبقرة والظّبية، والمرأة أحسن منهما. نعم حتّى يشبّهها بالحيّة، ويسمّيها شوهاء وجرباء، مخافة العين عليها بزعمه. فأمّا الأدباء والظرفاء فقد قالوا في الغلمان فأحسنوا، ووصفوهم فأجادوا، وقدّموهم على الجواري، في الجدّ منهم والهزل»[85].

إن التشبيهات والمسميات التي أطلقت على المرأة في الجاهلية، لهي أسماء تبرز بؤس وشقاء من يسميها، فأن تنعت المرأة بنعوت الحيوانات لأمر ميؤوس منه، شيء لم يقبله الجاحظ إطلاقا، فأورد على جهة الهزل أن غلمان عصر الإسلام وما بعد الإسلام أفضل من نساء من عشقهن الشعراء الجاهلية وماتوا بسبب حبهن، موضحا أن ما قيل من التشبيهات لا يتناسب مع المرأة، فلا يعقل وصفها بالحية والبقرة، ومعناه أن الغلمان أفضل منهن، فكيف بنساء ما بعد الجاهلية، فهن آية في الجمال، وهن أفضل وأبعد من المسميات التي ألصقت بهن، وبعدها أصبحت المرأة تنعت بالشمس والقمر والنور والكوكب، والأنجم وقطرات المطر، والوردة، وغيرها من التشبيهات، فقالوا عنها: «لذيذة العناق، طيّبة النّكهة، حلوة العينين، ساحرة الطّرف، كأنّ سرّتها مدهن، وكأنّ فاها خاتم، وكأنّ ثدييها حقّان، وكأنّ عنقها إبريق فضّة. وليس للظهور في شيء من تلك الصّفات حظّ»[86].

نهاية الليالي القرائية

إنّ الدّراسة لامست سرًّا من أسرار القراءة في علاقتها بالليل، بوصفه وجها من وجوهها النقيضة للوضوح، وبوصفه أيضا كاشفا لعمق النصوص المقروءة واحتمالاتها، ونافذا لمضمراتها الثاوية فيها، إن القراءة بما هي نهر كبير تجعل النص منتسبا إلى اللانهائي، وتفتحه على آفاقه الرحبة، لقد تسللت في الليالي متلصصا إلى نصوص الجاحظ التي تخفي أكثر مما تظهر، راغبا في اصطياد المعنى واستخراجه، نصوص تتجدد وتظهر لك وجهها المخالف، وتمنح قارئها متعة المرح والاستنشاط، وأختم هاته الليالي بحوار تخييلي بيني وبين الجاحظ، وأصوغه كالآتي:

أسأل صاحبي الجاحظ عن طريقة تنظيمه لكتاب الحيوان؟

85 «الرسائل الأدبية» (ص172)

86 «الرسائل الأدبية» (ص155)

أرغب في كتاب الحيوان أن ينتفع به القارئ وأن يستفيد من فصوله، «وليس من الأبواب باب إلّا وقد يدخله نتف من أبواب أخر على قدر ما يتعلّق بها من الأسباب، ويعرض فيه من التضمين. ولعلك أن تكون بها أشدّ انتفاعا. وعلى أني ربما وشّحت هذا الكتاب وفصّلت فيه بين الجزء والجزء بنوادر كلام، وطرف أخبار، وغرر أشعار، مع طرف مضاحيك. ولولا الذي نحاول من استعطاف على استتمام انتفاعكم لقد كنّا تسخّفنا وسخّفنا شأن كتابنا هذا»[87].

كيف تنصح قارئ كتاب بالحيوان؟ وبصيغة أخرى ماذا ستقول للراغب في قارئ كتاب ضخم ككتاب الحيوان؟

أقول للقارئ «انظر فيه نظر المنصف من الأكفاء والعلماء، أو نظر المسترشد من المتعلّمين والأتباع. فإن وجدت الكتاب الذي كتبته لك يخالف ما وصفت فأنقصني من نشاطك له على قدر ما نقصتك مما ينشطك لقراءته، وإن أنت وجدتني- إذا صحّ عقلك وإنصافك- قد وفّيتك ما ضمنت لك فوجدت نشاطك بعد ذلك مدخولا، وحدّك مفلولا فاعلم أنا لم نؤت إلا من فسولتك، ومن فساد طبعك، ومن إيثارك لما هو أضرّ بك»[88].

بماذا ستنصح قارئ الكتب، وهذا آخر سؤال:

أقول له: «إن نظرت في الكتاب فانظر فيه نظر من يلتمس لصاحبه المخارج، ولا يذهب مذهب التعنّت، ومذهب من إذا رأى خيرا كتمه، وإذا رأى شرّا أذاعه»[89].

87 «الحيوان» (6/ 326)

88 «الحيوان» (5/ 87)

89 «الحيوان» (4/ 361)

المصادر والمراجع المعتمدة:

1. الأندلسي بن عبد ربه شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه (المتوفى: 328هـ)، طبائع النساء وما جاء فيها من عجائب وأخبار وأسرار، مكتبة القرآن – القاهرة.
2. إنقزو فتحي، «معرفة المعروف: تحولات التأويلية من شلاير ماخر إلى ديلتاي»، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، ط1/ 2017م- الرباط.
3. بلقاسم خالد، «مرايا القراءة»، المركز الثقافي العربي، ط2017/1م – الدار البيضاء – المغرب.
4. بلقاسم خالد، مرح القراءة في البحث عن المعنى، مجلة الدوحة 105، العدد 149، مارس 2020م
5. بورخيس لويس خورخي، الرمل: قصص، ترجمة سعيد غانمي، دار أزمنة للنشر، ط1999/2م،
6. الثعالبي أبو منصور (المتوفى: 429هـ)، أحسن ما سمعت، وضع حواشيه: خليل عمران المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، 1421 هـ - 2000م
7. الجاحظ أبو عثمان (المتوفى: 255هـ)، البرصان والعرجان والعميان والحولان، دار الجيل، بيروت، الطبعة: الأولى، 1410هـ
8. الجاحظ أبو عثمان (المتوفى: 255هـ)، البغال، دار ومكتبة الهلال، بيروت، الطبعة: الثانية، 1418هـ
9. الجاحظ أبو عثمان (المتوفى: 255هـ)، الحيوان، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الثانية، 1424 هـ
10. الجاحظ أبو عثمان (المتوفى: 255هـ)، الرسائل الأدبية، دار ومكتبة الهلال، بيروت، الطبعة: الثانية، 1423 هـ
11. الجاحظ أبو عثمان (المتوفى: 255هـ)، المحاسن والأضداد، دار ومكتبة الهلال، بيروت، عام النشر: 1423 هـ
12. الجاحظ أبو عثمان (المتوفى: 255هـ)، رسائل الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1384 هـ - 1964 م
13. جعفر بن أحمد بن الحسين السراج القاري البغدادي، أبو محمد (المتوفى: 500هـ)، مصارع العشاق، دار صادر، بيروت.
14. جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: 597هـ)، أخبار النساء، شرح وتحقيق: الدكتور نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت – لبنان، 1982
15. حرب علي، التأويل والحقيقة: قراءات تأويلية في الثقافة العربية، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، ط1/ 2007م- بيروت،
16. الدميري أبو البقاء، كمال الدين الشافعي (المتوفى: 808هـ)، حياة الحيوان الكبرى، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الثانية، 1424 هـ
17. الراغب الأصفهانى (المتوفى: 502هـ)، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت، الطبعة: الأولى، 1420 هـ
18. الزواوي بوزريبة مختارية، الترجمة والمعنى النصي وسياقاته من منظور تأويلي، معهد الترجمة بجامعة وهران، الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، ب/ قسم الآداب واللغات العدد 19 - جانفي 2018 م.
19. غادامير جورج، الحقيقة والمنهج: الخطوط الأساسية لتأويلية فلسفية، تر: حسن ناظم وعلي حاكم صالح، راجعه على الألمانية جورج كثوره، دار أويا، ط1/ مارس الربيع الأول 2007
20. كيليطو عبد الفتاح، الأدب والارتياب، دار توبقال، ط1، 2007م، المغرب.

Mominoun
MominounWithoutBorders
@ Mominoun_sm

info@mominoun.com
www.mominoun.com

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
www.mominoun.com للدراسات والأبحاث